الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان

تأليف
زكى على
أستاذ التاريخ القديم
بكلية الآداب ، جامعة فاروق الأول

مطبعة « دار المستقبل »



الاسكندر الاكبر

الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان

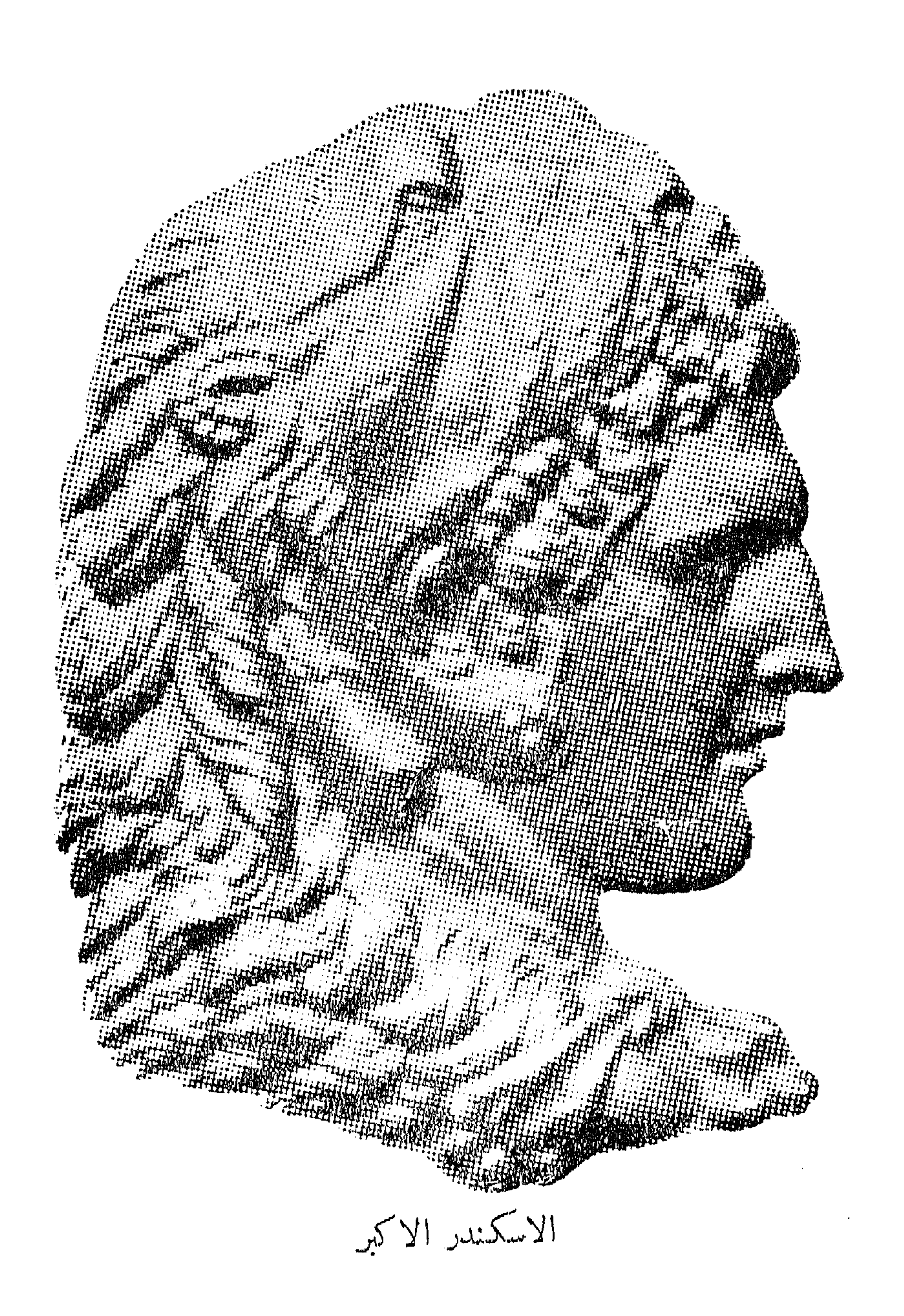
للاستاذ زكى على

إن قليلا من المدن لقى من التمجيد والاشادة بالذكر مثل ما لقيته الأسكندرية القديمة ، فكان التمدح بهامن الأحاديث المتعارف عليها وانبرى الكتاب القدماء يكيلون لها المدح ويحتفون بعظمتها وفخامة أبنيتها ويخلدون ذكراها على مر السنين ، ونحن وإن لم تكن لدينا معلومات وثيقة عما كانت عليه حالها فى القرن الثالث قبل الميلاد إلا أن الطريقة التى بنيت بها والنطاق الواسع الذى كانت عليه وسلطان ملوكها الأولين من البطالمة الذين اتخذوها عاصمة لامبراطوريتهم وحبهم للعظمة والفخامة وما عرف عنهم من التبذير والاسراف والوصف الخالد لبعض الأعياد العامة التى كان يقيمها بطليموس الثانى — كل هذا يدل على أن المدينة منذ نشأتها الأولى كانت لا تزال بحالها الذى وجدت عليه فى عهد أغسطس عندما زارها سترابون الجغرافى فكان خير شاهد عيان، خلد لنا فى كتابه السابع عشر من جغرافيته وصفا رائعا لأبنيتها ومعالمها، ولا يزال مصدراً مهماً فى تعرف أحوالها الأولى ، ومن قبله زارها المؤرخ بوليبيوس فى عهد بطلميوس يورجتيس الثانى وشاهد أحوال أهلها وكتب فى كتابه الرابع والثلاثين وصفا لاهلها لا ينطوى على مدح خالص .

ولا ريب أن الأجانب الذين زاروا الاسكندرية فى عهد البطالمةاعتراهم شعور الاعجاب والتقدير فانبروا يعبرون فى مغالاة واطراء عما يختلج نفوسهم من مشاعر ؛ فبهرت أبصارهم أبهة مبانيها العامة وفخامتهاوشوارعها المستقيمة المتقاطعة فىزوايا قائمة والتى كانت تخترق المدينةمن أقصاها إلى أقصاها تحف بجوانبها صفوف لا عدد لها من الأعمدة والبوائك وبهرتهم رقعة مساحتها الشاسعة وسياجها الذى يحيط بها وعدد آثارها الخالدة وما اتسمت به من فخامة وعظمة كما استرعى أبصار زائريها فى ذلك الحين احتشاد سكانها إلى حد الاكتظاظ وهم يتحدثون بمختلف اللغات والرطانات إلى درجة تسترعى الاسماع وتدعو إلى الدهشة .

تاسيس المدينة

ويرجع الفضل فى تأسيس مدينة الاسكندرية إلى الاسكندر الأكبر فهو منشؤها — دخل مصر فى خريف ٣٣٢ ق . م . زاحفا من الشرق ، يقود جيشه المظفر ، وقد أثلجت صدور رجاله هزيمة الملك الفارسى العظيم دارا الثالث ، واستيلاؤهم على مدينة «صور» التى أتعبتهم واضطرتهم أن يضربوا عليهم الحصار — حط الاسكندر رحاله أول الأمر فى ممفيس التى عرج عليها ودخلها ، وزار فيها معبد الاله بتاح . وكان قد انقضى بضع سنوات منذ استرد الفرس البلاد المصرية ، وكانت قد استقلت مدة قرن . ولم يجد الاسكندر أى صعوبة فى إخضاع البلاد له ، وعده المصريون مخلصا لهم من حكم الفرس ، فتوج ملكا على البلاد فى معبد الاله بتاح بممفيس . وكان من قبل بتقديمه التضحيات لآلهة البلاد المحلية وإقامة المباريات فى الألعاب الرياضية ، وفنون الشعر والموسيقى على الطريقة الاغريقية ، قد خرج للناس فى ثوب العامل على توثيق الروابط ، والجاد فى التوفيق بين الشرق والغرب . قضى فصل الشتاء فى مصر ، وفى خلال هذه الفترة زار معبد آمون فقوبل بالاجلال والتعظيم ، ونودى به ابنا للإله زيوس آمون ، وفى طريقه إلى هناك ركب فرع النيل الغربى أو الكانوبى حتى وصل إلى قرية صغيرة تسمى راقوده (Rhakotis) بالقرب من ساحل مصر الشمالى ، ويسكنها صيادو الأسماك ، وقد استطاع بعض علماء الآثار أن يتعرفوا بقايا مبان لميناء قديم فى هذا المكان ، ولكن بعضا آخر ينكر عليهم هذا . والرأى القديم فى شأن راقوده يقول أنها قرية قليلة الأهمية ، ومن دعاة ذلك العالم هوجارث (Hogarth) فى مجلة الآثار المصرية (الجزء الثانى عام ١٩١٥) وتبعه كثيرون . ولكن الرأى الحديث أخذ يحيد عن ذلك الزعم ، ويرى فى راقودة بلدة فرعونية مهمة ، وعاصمة لاقليم شامل لست عشرة بلدة أخرى . وقد أيدت الحفريات الحديثة صدق ذلك ، وأنها كانت حصنا أماميا وبلدة هامة فى الاقليم الغربى الواقع على الحدود تجاه ليبيا منذ الأسرة الثانية عشرة ، وبالتحقيق منذ عصر الرعامسة — وتدل الأبنية القديمة فى راقوده ومرفأها على انها كانت المنفذ الرئيسى بين مصر وممالك البحر المتوسط ، ومركزاً تجاريا هاما مع بلاد الاغريق فى عصر الأسرات السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين إذ أن المرفأ فى هذا الجزء من الساحل الشمالى لمصر يكون أقرب وأسهل للاتصال بالعالم الاغريقى من الفرما التى كانت تقع على شاطىء الفرع البلوزى على مسافة عشرين ستاديا من البحر بحسب ما جاء فى سترابون والتى جعلها قربها من فلسطين وسوريا عرضة للتأثر بسلطان الفرس ، ولعله كان لأهمية راقوده فى العهد الفرعونى المتأخر وصلاتها الوثيقة بالعالم الاغريقى أثر فى اختيار الاسكندر لهذا الموقع ليقيم عليه مدينته الجديدة . وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكن القول بأن الاسكندرية ، مثلها مثل كثير من المدن الهيلينية والمؤسسات العمرانية التى تلتها لم تكن جدتها كاملة ، وإنما هى بلدة قديمة أعيد تأسيسها وبناؤها



الاسكندر الاكبر

وتوسيعها على نطاق واسع تغيرت معه جميع معالمها القديمة . ولهذا الرأى خصوم ينكرون أهمية راقوده إذ يرون فيها قرية متواضعة .

ومهما يكن من شيء فان ما كان يسترعى نظر الزائر لهذه البقعة فى القرن الرابع قليل ، إذ كل ماهنالك شاطىء رملى منخفض تقع على مقربة منه قرية صغيرة بدت قليلة الأهمية ، يسكنها جماعات فقيرة من صيادى الأسماك ، وليس فى هذا كله أية دلالة على ما كانت تخبؤه الأقدار من عظمة لمدينة الاسكندرية المستقبلة ومباهج الحياة فيها — على هذا المكان وقع اختيار الاسكندر الذى قدر رسالته لنشر الثقافة والحضارة الهيلينية فى بلاد الشرق فقرر أن يؤسس مدينته عليه وقد صارت الاسكندرية من أعظم بلاد العالم وأصبح دورها فى العصر الهيلينى الثانى أو بالأحرى فى عصر البطالمة هو دور النهضة والانشاء ولم يقدر لتلك المدينة أن ترى فى العصور التالية أعظم منه نهضة علمية وفكرية وقد اصبحت فيه بلا ريب أولى مدن العالم وكان يسميها الرومان « بالاسكندرية الواقعة على تخوم مصر » (Alexandria ad Aegyptum) وكأنما تزهو بنفسها وبموقعها على تلك الحافة الشمالية. ويرجع الفضل فى ذلك كله إلى مؤسسها الذى كان من أفذاذ رجالات التاريخ، ولكن فريقا من المؤرخين الذين يولعون بالجدل والنقد ولا يطيب لهم الأمر إلا بعد أن يفندوا ما تواتر عليه العرف يقولون أن أهمية مؤسسة الاسكندر كانت نتيجة أسباب بعيدة كل البعد عن تقدير الاسكندر وذكائه ، ولا ريب أن حقيقة الأمر وسط بين هذين الرأيين المتطرفين ، وعلى الرغم مما عرف عن الاسكندر من اندفاع وتهور ومضاء خارق للعادة فانه كان يتصف بالمقدرة على إصدار الأحكام فى هدوء وروية وصفاء الذهن بدرجة لم يجاره فيها إلا قليل ؛ ويمكن أن نقول بحق أن الاسكندر اختار هذا الموقع لمدينته الجديدة تحدوه عدة اسباب، وربما كان متأثرا كما هو الاعتقاد السائد حديثا ، بما وجده من تشابه بين هذا الموقع وموقع مدينة صور التى أراد لمنشأته الجديدة أن تبلغ ما بلغته صور من الأهمية التجارية والبحرية ، على أن الاسكندرية كانت ذات مزايا حقيقية لها قيمتها ؛ كان انشاء الموانى العظيمة المعروفة فى العصور الهيلينية لا يتم إلا بعد القيام بأعمال كثيرة واسعة النطاق ولكن تكوين الساحل الشمالى الغربى لمصر ووجود جزيرة فاروس على مقربة من الشاطىء أثار فى نفس الاسكندر فكرة القيام بهذه الأعمال بل سهل تنفيذها ، وكان وجود بحيرة مريوط خلف هذا الموقع واتصالها بالنيل أتاح فرصة وجود ميناء عذب المياه سهل الاتصال من كلا جانبى البحر والنهر ، ذلك إلى أن نظام التيارات المائية فى شرق البحر المتوسط يعرض الموانى الساحلية ثمة لأن تسد بالرواسب أما الاسكندرية فلا تعتريها هذه الشائبة ، ومن المحتمل أن يكون اليونانيون الساكنون فى مدينة نقراطيس(١) قد اطلعوا الاسكندر على هذه الحقيقة الجغرافية ثم لعل هناك سببا آخر له طابع

١ — نقراطيس — مدينة اغريقية أسست فى عهد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين على الفرع الكانوبى للنيل وموقعها الآن بضع قرى هى نقراش وكوم جعيف ونيبره وغيرها فى تخوم مركز إيتاى البارود، وكانت مدينة اغريقية صميمة وتوفرت لها كل مظاهر الحضارة الأغريقية وعاش فيها الأغريق على طريقتهم ووفق أسلوب الحياة السياسية والاجتماعية المألوف لهم فى بلادهم الأصلية .

سياسى فراقوده بلدة متواضعة ليس لها مجد تالد وإذاً فلا يخشى أن تصطدم المؤسسة الهيلينية الجديدة التى تقوم على انقاضها بأى تقاليد أو نظم موروثة فيها بل ويرجى لها تقدم فى ظل الحضارة والثقافة الهيلينية غير هيابة أو وجلة من وطأة تقاليد وطنية قديمة .

وفوق ذلك فان تأسيس الاسكندرية جاء نتيجة طبيعية لحملة الاسكندر العامة على الشرق، فبلاد الأغريق خرجت لغزو آسيا كيما تفرض عليها عاداتها ودينها ولغتها وأصبحت الهيلينية غير محصورة فى نطاق بحر إيجه وجزائر بحر الأرخبيل بل أخذت فى التغلغل فى الشرق البعيد فلم تعد أثينا قادرة على أن تبقى عاصمة للعالم الجديد الممتد من شواطىء الهند والخليج الفارسى تجتازه تجارة الفرس وبلاد العرب والقوافل الليبية والمراكب الفينيقية ؛ فكان على الاسكندر أن يختار عاصمة جديدة ومرفأ يتسع لهذه المتاجر ويكون خليقا بمملكته العالمية ، وكان الاسكندر بغزوه بلاد الشرق المترامية الأطراف يعتبر نفسه ملكا شرقيا وخليفة لملوك الفرس العظام وكان ينوى أن يربط تحت لوائه وسلطانه أثينا وبابل وبلاد الأغريق وآسيا المتأغرقة؛ وعلى ذلك وجد من الضرورى أن يؤسس مدينة تكون خليقة بعاصمة هذا الملك العريض ، فيكون موقعها الفذ وسيلة لتحقيق هذا الاتحاد المنشود فاختار الاسكندرية كيما تقوم بهذا الدور؛ وكانت مؤسسته فى مركز وسيط تقع فى وسط البحر الأبيض الهيلينى وعلى مسافة متساوية تقريبا من بلاد الأغريق وآسيا الصغرى وسوريا وتصل اليها عن طريق البحر وبحيرة مريوط تجارة ذات شقين فمن الشمال انسابت تجارتها الى موانى كل من البحرين الأدريانى والأسود ومن الجنوب اتصلت عن طريق النيل وخليج العرب بمجاهل أفريقيا وأقاصى آسيا فهى اذاً ميناء مثالية تفد اليها المتاجر من كل صوب فى تلك الامبراطورية الشاسعة .

وأخيرا كانت الاسكندرية مؤسسة جديدة لا تنتمى الى أى شعب ولا الى أى مملكة ولا يتسبب عن قيامها استفزاز لغيرة مدينة أخرى مناهضة وفيها كان يلتقى الوافدون من أقاصى البلاد المختلفة أغريقية أو متأغرقة من آسيا وأوربا ، وفى هذه البوتقة تختلط هذه الشعوب فلاتلبث أن تصبح عنصراً واحداً وتصبح المدينة فى الوقت نفسه مركزاً تلتقى فيه ثلاث قارات وموطنا لكل هذه الشعوب .

ولا ريب أن الاسكندر كان ينوى أن تحل مؤسسته الجديدة محل مدينة صور التى اتعبته فى أثناء حصارها ، ولكن قيل ان آراءه فى هذا الشأن قد تغيرت ، وانه لو عمر لأعاد «صور» سيرتها الأولى ، وفى الحقيقة كان فى وفاة مؤسس الاسكندرية ضمان لمستقبل مدينة الاسكندرية فى التفوق وبلوغ المنزلة الممتازة ، ومهما يكن إدراك الاسكندر وطموحه الى توحيد الشرق والغرب فانه الى سنة ٣٣١ ق . م . كان لايزال ملكا على مقدونيا وقائدا أعلى لبلاد اليونان وبطلا لأوربا ، ناصراً لها على آسيا ولكن كلما اتسعت آفاق فتوحه شرقا أخذ يشعر بأنه أصبح خليفة الملك الفارسى العظيم وان بلاد اليونان ومقدونيا أصبحتا جزءاً صغيراً من املاكه الواسعة ، وعلى ذلك ظهر له ان ميناء يتصل مباشرة بأملاكه الاسيوية يكون أنفع له من ميناء بعيد كالاسكندرية ، ولكن الحمى القاتلة

التى اصابته فى بلاد مابين النهرين اخرجت تقرير ذلك المصير من يده، ولما مات فى سنة ٣٢٣ ق. م. كانت المدينة الجديدة لايزال مقدراً لها ان تخلف «صور» فى التفوق التجارى فى شرق البحر المتوسط

الأسكندرية فى عصر البطالمة

وبموت الاسكندر انهار ذلك البناء الشامخ الذى تعب فى إقامته وتداعت أركانه ومع ذلك فان التنبؤات التى قالت بعظمة الاسكندرية المستقبلة لم يثبت خطؤها وبطلانهـــا ، وعلى الرغم من أن الاسكندرية عجزت عن أن تصل إلى فرض سيطرتها وسلطانها على العالم القديم الا أن مزايا موقعها الفذ بقيت حقيقة ثابتة ، ومما ساعدها على تقدمها إلى حد كبير قوة دولة البطالمة واتساع سلطانهم فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد فى شرق البحر المتوسط ، هذا إلى ضعف الممالك المجاورة فكانت الاسكندرية مدينة تحميها طبيعتها وقوة البطالمة ضد كل أصناف العدوان وصروف الحدثان فلم يصادف تقدمها السريع شىء من تلك الانقـلابات العنيفة التى كانت سببا فى تخريب آسيا ؛ وفى الحروب التى وقعت بين أخلاف الاسكندر اثبتت الحوادث صّدق فراسة بطلميوس الأول الذى اختار مصر لتكون نصيبه فى ذلك الارث الواسع وقنع به فلما ساءت العلاقات بينه وبين برديكاس، أحد أخلاف الاسكندر، وشن عليه برديكاس حربا وعجز جيش بطلميوس عن أن يصد الغزاة قامت ريح صرصر عاتية بعرقلة جهود العدو وصد النيل الغزاة فتشتت شملهم وعلى ذلك صمدت الاسكندرية لمثل تلك الظروف وبقيت عاصمة ملك البطالمة ومركزا للعلم إذ وجد فيها الذكاء الاغريقى أرضاخصبة وبيئة جديدة فازدهر وأينع وأثمر ثماراً طيبة أتى منها الانسان أكله فى كل حين .

التوفيق فى اختيار مصر لتكون من نصيب بطلميوس

ومصر مملكة ذات حدود طبيعية يكتنفها البحر المتوسط والبحر الاحمر ويجرى فيها النيل فجعلتها هذه الظروف الطبيعية معدة أحسن إعداد لأن تصير مملكة قوية مهيبة الجانب ، آمنة مطمئنة من غائلة العدوان ويكاد يكون غزوها واجتيازها أمراً صعب المنال ،يحميها نيلها المبارك الذى سمـــاه أيسقراطيس « حائطا خالداً »فصدت هذه العوائق الطبيعية العدو الزاحف من الخارج وضمنت اضطراد التقدم فى الداخل، وكانت سهولة المواصلات الداخلية كفيلة باخضاع السكان للحكومة القائمة وطاعتهم لها ، وما لبث المصريون أن أقبلوا على الحضارة الاغريقية يغترفون منها فى أول هذا العهد وتركوا تقاليدهم القديمة المتوارثة فى معاقلها فى صعيد مصر ومعابدها القديمة وأخذوا يحاكون الاغريق فى أساليبهم ونظمهم المدنية والاجتماعية ولم يكن لدى المصريين سبب يأسفون معه على ضياع سيطرة الفرس على بلادهم وهم الذين ساموهم سوء العذاب وحقروا آلهتهم فرحبوا بزوال ذلك العهد . وفى بدء الغزو المقدونى كانت طبقة المحاربين من الوطنيين وهم الذين عرفوا باسم (Machimoi) قد أوشكت على التفرق والتفكك بل انها كانت قد ضاعت معالمها، وبز والهافت فى عضد المقاومة لحكم الأجنبى الغاصب، وبفضل الأساليب السياسية

البارعة من إدارية وقضائية واقتصادية استطاع البطالمة أن يستحوذوا على الكهنة من المصريين ويسيطروا عليهم وكان يؤيد بطلميوس جيش يبلغ عدده نحو مائتى الف رجل ويتألف أغلبه من الاغريق واشتاتهم الذين وفدوا إلى مصر زرافات ووحدانا استجابة لدعوة بطلميوس الذى أجزل لهم العطاء وقد سجل شاعر البلاط البطلمى ثيوكريتس (Theocritus) فى إحدى قصائده الراعوية ما انطوت عليه مشاعر جند الاغريق الذين انضووا فى خدمة البطالمة وهرعوا إلى مصر وحجوا إلى الاسكندرية التى بهرتهم مباهجها . وكان المقدونيون يتولون أرفع المناصب فى الجيش وفى الادارة وسيطر هذا الجيش شيئا فشيئا على الشرطة والمحاكم الجنائية وجزء من الادارة المدنية ؛ وفوق ذلك فانه كان فى خدمة بطلميوس جمع غفير من الموظفين الطامعين فى المال والمتزلفين الذين يسارعون بتقديم فروض الولاء والطاعة إلى الملك وموظفى البلاط؛ وكان الملك يتمتع بايراد سنوى بعضه عينى ، يقدر بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وأغلبه من مختلف الضرائب التى ذكر أغلبها العالم (فلكن Wilcken) فى ثبت يروع الانسان ويهوله كثرتها وتنوعها وتناولها جميع مظاهر النشاط الانسانى وجهود المصريين فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة .

أفلم يكن بطلميوس بكل هذه الموارد والثروات فى مركز يساعده على أن يركز جهوده وموارد بلاده فى ابتناء عاصمته الجديدة وادخال التحسينات عليها والعمل على أن تبدو فى ثوب يتسق مع ذلك الغنى الطائل الذى عرف به ملك البطالمة؟ فزادت مباهجها حتى عدت مفخرة البطالمة وبفضل حسن استخدام هذه الموارد ألم يكن فى استطاعة بطلميوس أن يحيط نفسه بحاشية من العلماء والشعراء وفى الظلال الوارفة لهذا الحكم المطلق الهادىء ألم يكن بطلميوس واثقا من مقدرته على أن يعيد بعث الآداب والفنون فى عاصمته الجديدة بعد أن كانت فى أيام أخر ثمار الديمقراطية الجامحة الهوجاء فى أثينا وغيرها من مدن الأغريق ؟ ولم تتخاف الاسكندرية عما قدر لها فقد استقر فيها اذ ذاك أناس على جانب كبير من النشاط أشربوا روح التجديد وتميزوا بمقدرة تجارية خاصة ، وكانت هذه المدينة تشرف على بلد خصوبته مضرب الأمثال ويسكنه شعب ذكى نشيط ويتصل بالطرق التى تؤدى إلى البحر الأحمر والممالك التى تنتج التوابل وله ميناء أصبح بعد اتمام الأعمال الهندسية اللازمة يساوى أفضل الموانى فى العالم القديم — تلك هى الاسكندرية التى كتب لها أن تكون العاصمة التجارية للشرق .

كان بطلميوس الأول بن لاجوس يبلغ من العمر نحو أربعين سنة عند اقتسام امبراطورية الاسكندر بين قواده فاختص بمصر فى هذا التوزيع وحكمها بوصفه ساترابا (Satrap) أو واليا يطبق سياسة عرفها العالم «كورنمان» بالسياسة السترابية (Die Satrapenpolitik) وتختلف هذه فى غايتها ومآربها عن السياسة التى نهج عليها البطالمة بعد أن تلقب أولهم بلقب ملك سنة ٣٠٥ ق.م. وحذا حذوه اخلافه من أبنائه فى ذلك ؛ وكان بطلميوس هذا زعيما قديرا وسياسيا بارعا حصيفا يجمع بين الاعتداد بالرأى والدأب فى السعى وبين المداورة والمصانعة وهو إذ يسعى لتحقيق غرض واحد لا يتحول



الإله سيرابيس

عنه كان يظهر العناد حينا ويتخذ سبلا مختلفة للوصول لضالته وكان يعمد إلى اتخاذ القوة والحرب أداة لتحقيق المآرب التى لا يستطيع الوصول إليها بالطرق السلمية الدبلوماسية وكان يحرص دائما على كسب فتوح ثابتة ولا تعنيه مظاهر العظمة والفخفخة وحب الظهور ومواكب النصر وهى بنت ساعتها وكان فوق كل هذا يجمع بين الأناة والصبر والعناية بالمسائل الدقيقة الصغيرة وبين الاهتمام بالمسائل الجليلة، وهكذا كان هذا المحدث النعمة يجمع فى شخصه كل الصفات اللازمة لمؤسس امبراطورية وملك عريض كملك البطالمة .

كان بطلميوس الأول حسن التقدير بعيد النظر قدر أن « عصفورا فى اليد خير من اثنين على الشجرة » فلم يشأ أن ينازع القواد الآخرين فيمن يتولى منصب نائب الملك فى حكم الامبراطورية كلها بل قنع بالاستيلاء على مصر الغنية وعمل على أن ينقل اليها جثة الفاتح العظيم وهى تعرف باسم سوما (Soma) ثم حرفت إلى سيما (Sema) فلما ظفر بهذا الحرز الثمين يمم شطر مصر تاركا زملاءه يفضون خلافاتهم فى آسيا واتخذ مقره بمفيس حيث دفنت جثة الاسكندر أولا . وبعد ذلك ، وليس معروفا على سبيل التحقيق تاريخ ذلك « نقل بطلميوس عاصمة الملك الى الاسكندرية ولعله خطا تلك الخطوة بعد أن كان بناؤها قد اشرف على النهاية أو اكتمل بعض مظاهرها على الأقل وبعد تحول فى اتجاه سياسته .

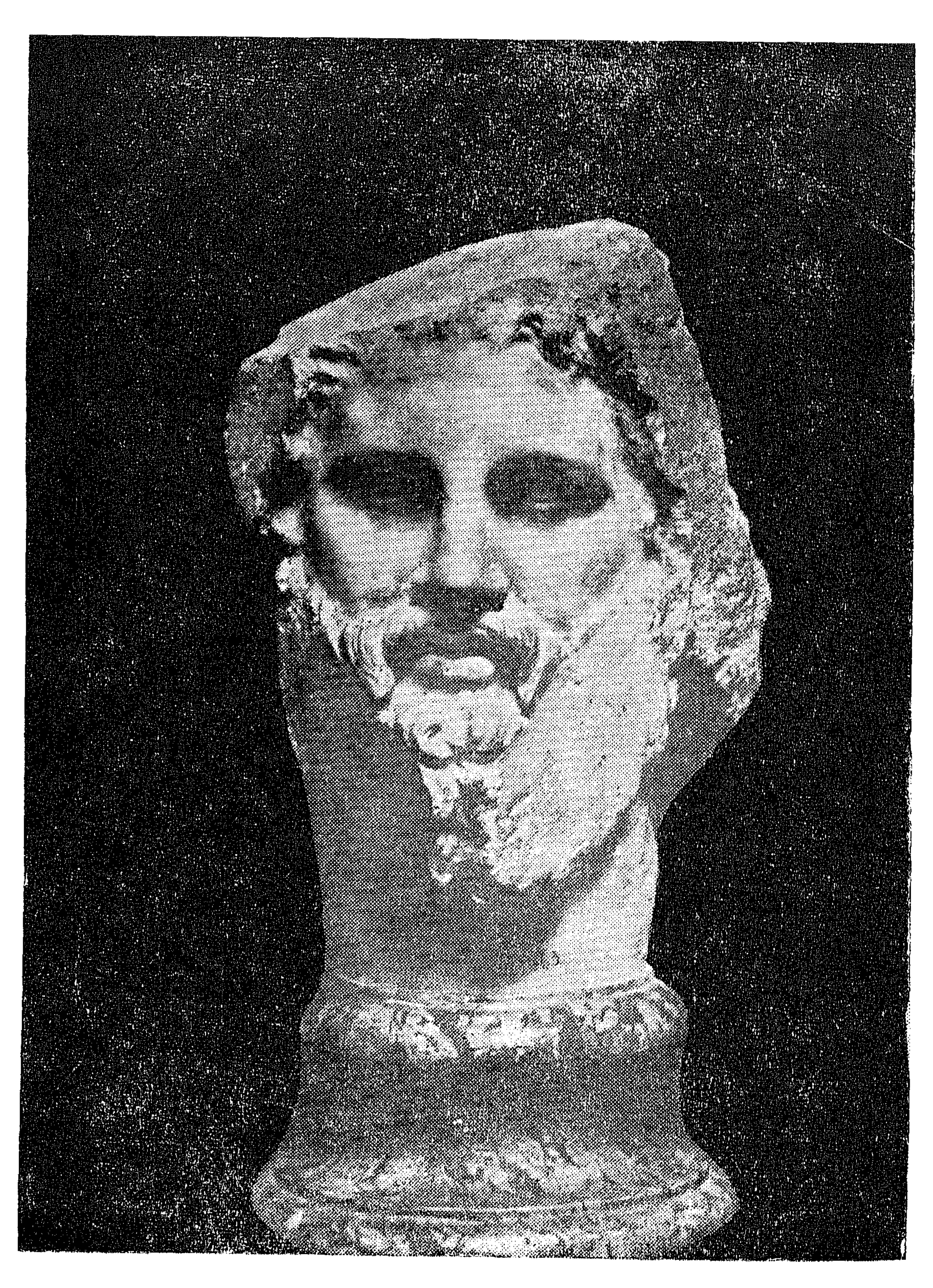
ويظهر أنه سار فى أول الأمر على خطة الاسكندر ونهجه وهى السياسة التى تسكنى « بالساترىية » فكان يشجع اختلاط اليونانيين بالمصريين ، وولى المصريين بعض الوظائف الرئيسية ثم بدا له فغير هذه السياسة وأحل محلها مع المصريين سياسة الفاتح مع المهزومين وهى السياسة التى احتذاها أخلافه وساروا فيها على طريقته إلى أن بدا ضعف ظاهر على ملوك أسرة البطالمه فاضطروا أن ينهجوا نهجا آخر فقدموا ترضيات وإعفاءات (Philanthropa) لرعاياهم من المصريين . ولعل نقل مقر الحكومة إلى الاسكندرية كان العنوان الظاهر الدال على تغيير مجرى السياسة القديمة ، ولابد أن بعيدى النظر من المصريين استطاعوا إدراك كنه ذلك وما يتضمنه من مغزى .

عبادة سيرابيس

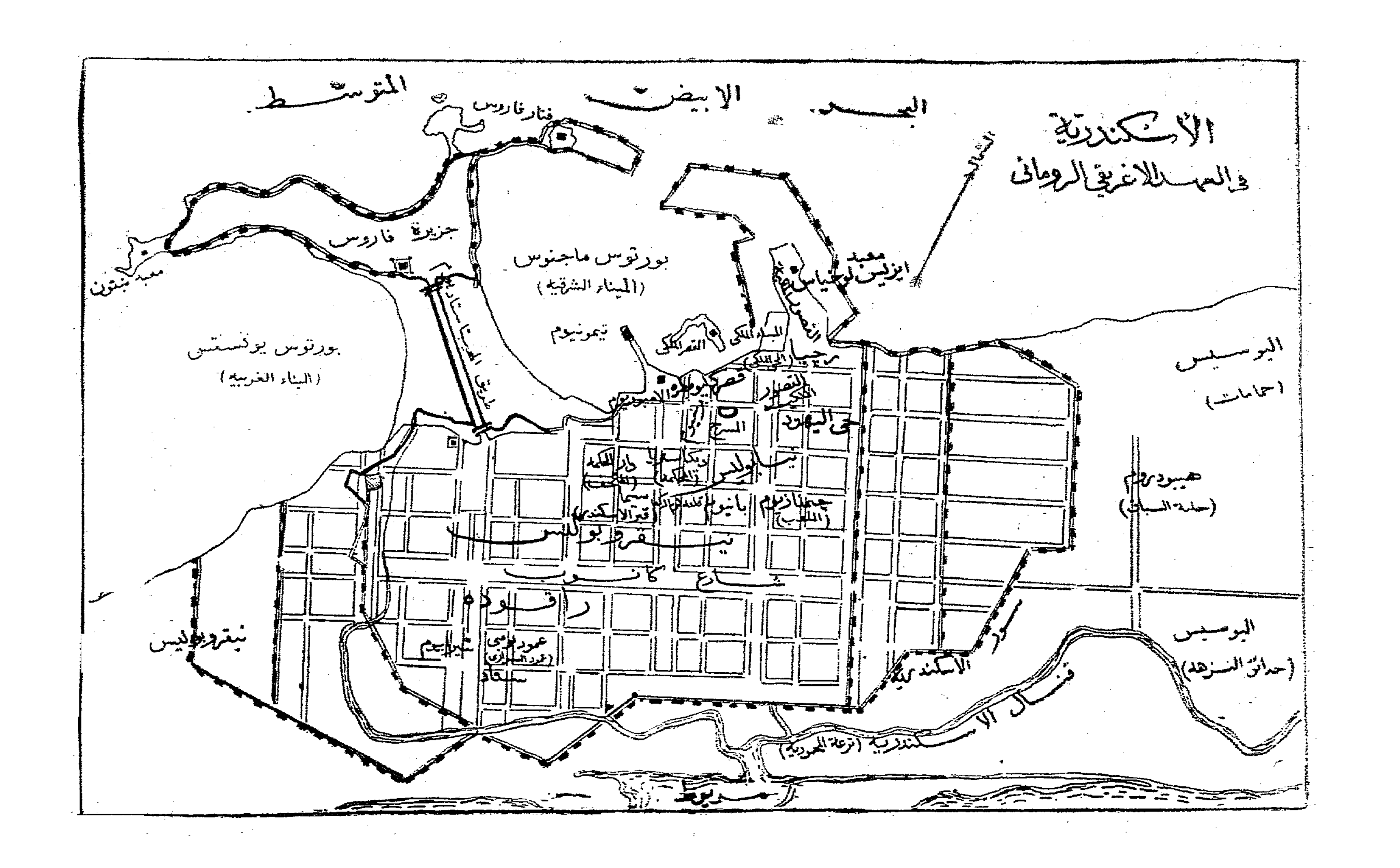
ولقد تلا ذلك اتخاذ إجراءات أخرى ترمى إلى نفس الغاية ، فعمد إلى الديانة يتلمس السبيل لتوثيق العلاقة بين المصريين والاغريق . وكان الاسكندر قد استبق الحوادث فعمد إلى إظهار رغبته فى تكوين علاقات الصداقة مع المصريين بتأسيسه معبداً للآلهة (إيزيس) فى الاسكندرية فلما جاء بطلميوس وجد أن الديانة المشتركة هى خير وسيلة لتوثيق الروابط بين الأجناس والشعوب ، وأن الاغريق والمصريين سوف يعتبرون الاسكندرية وطناهم لو أنها أصبحت مركزاً لعبادة آلهتهم، وفوق ذلك فان توحيد العبادات يكون من شأنه توحيد الشعبين وتقبل القوانين والنظم الجديدة بقبول حسن . فجعل للبلاد معبوداً جديداً هو سيرابيس (Serapis) وقد ظهرت عبادته أولا فى ممفيس ملتقى اليونانى

والمصريين ، وكان هذا الاله الجديد هو الاله الرسمى فى امبراطورية بطلميوس ، ثم أصبح مركز هذه العبادة الرسمى مدينة الاسكندرية حيث أخذت تصطبغ بصفة رسمية بصبغة هيلينية وتوضع لها التقاليد والطقوس الهيلينية ، وبنى فى الاسكندرية حرم مقدس لهذا الاله الجديد فى الجزء الجنوبى الغربى من الاسكندرية فى الحى القديم المعروف براقوده ، وهو الحى الذى كان مأهولا بالسكان قبل تأسيس المدينة ، واستمر كذلك فى عهد البطالمه ، فكان أكثر الأحياء سكانا وأشدها ازدحاما. وفى هــذا الهيكل أمر بطلميوس بإقامة تمثال ضخم للإله سيرابيس وهو إله العالم السفلى جلبه من سينوبى على البحر الاسود . ولجلبه قصة طريفة ذكــرها مانيتون وأشار إليها المؤرخ الرومانى تاسيتس (Tacitus) فى الجزء الرابع من تاريخه ، وتتلخص فى أن الملك البطلى بعث يطلب نقل تمثال هذا الإله من سينوبى وكان اضخم تمثال له وقد عول ملك سينوبى على تسليم هــذا التمثال متأثرا بالأحلام والنذر التى طافت به وعنــد ما أعدت العدة لنقل التمثال من ضريحه تجمع السكان وقد بدت عليهم أمارات الغضب وعم الصخب وهددوا بالحيلولة دون نقل التمثال منعا لإرتكاب هذا الأثم المبين وبينما هم على هــذا الحال واذا بالتمثال ينتقل من تلقاء نفسه من موضعه الى ظهر المركب كما لو أن الآلهة نفسها قد اتخذت من الاسكندرية لهـا مقراً — وقد أقيم بعــد ذلك السرابيوم(١) (Serapeum) على مرتفع من الارض حيث كان يقوم ضريح متواضع لذلك المعبد وكان يؤدى اليه سلم عال يبلغ عدد درجاته مائة وقد أحيطت به الأروقة والابهاء الفسيحة ذات الأعمدة وحلى بالتماثيل وألحقت به مكتبة حتى اصبح اثراً خالداً من آثار الاسكندرية بلغ حــــداً من الجمال جعل بعض كتاب الرومان يشيدون بذكره فيما بعــد ويقولون عنه فى سـذاجة وبساطة ان الانسان ليحار فى وصفه وان الكلمات لتعجز عن أن توفيه حقه . وقد انتشرت عبادة سيرابيس فى انحاء البلاد فأقيمت السرابيومات على نسقه فى عواصم الأقاليم المصرية بل وفى القرى المتواضعة فكان ببلدة فيلادلفيا بالفيوم معبد لسيرابيس الى جوار مختلف المعابد الأخرى حرصت الجالية اليونانية على إقامته ببلدة فيلادلفيا وهى قرية نموذجية ابتناها أبولونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) وسماها باسم مليكه تيمنا ، وخططت هذه البلدة على نسق مدينة الاسكندرية مستطيلة الشكل كرقعة الشطرنج ذات شوارع طويلة مستقيمة متقاطعة فى زوايا قائمــة فجاءت القرية النموذجية تحكى للنــاس فيما بعد بعض تاريخ الاسكندرية وما خفى من معالمها . ولــكى يبارك بطلميوس الثانى مدينة الاسكندرية ويكسبها هالة من القدسية نقل اليها جثة الاسكندر التى احتواها قبر جميل اصبح يعرف باسم « سيما » (Sema) وما لبث أن اصبح مركز عبادة عظيمة يشرف عليها كاهن سنوى وبقى أثرا يؤمه الحجاج والزائرون عدة قرون فيما بعد للتبرك والوفاء بالنذور ولم يعرف الآن موضعه على سـبيل التحقيق وهل هو بجوف كوم الدكة فى موضع جامع النبى دانيال أم هو عند السرابيوم براقودة أم فى مكان

(١) توجد بعض آثار السرابيوم حول العمود المعروف الآن بعمود السوارى .



رأس من الرخام الأبيض تمثل الإله ريوس (وتوجد بالمتحف اليونانى بالاسكندرية)


الإسكندرية
في العهد الإغريقي الروماني
البحر الأبيض المتوسط
الشمال
فنار فاروس
جزيرة فاروس
معبد نبتون
بورتوس ماجنوس
(الميناء الشرقية)
بورتوس يونستس
(الميناء الغربية)
طريق الهبتاستاديوم
تيمونيوم
القصر الملكي
الميناء الملكي
معبد ايزيس لوخياس
اليوسيس
(حمامات)
هيبودروم
(حلبة السباق)
اليوسيس
(حدائق النزهة)
حي اليهود
المسرح
شارع كانوب
راقودة
عمود بومبي
(عمود السواري)
سيرابيوم
نيكروبوليس
قناة الإسكندرية (ترعة المحمودية)
سور الإسكندرية
مريوط

آخر بالقبور الملكية فيما وراء رأس لوخياس (Lochias) الى الداخل ويشير سترابون الى موقع قبر الاسكندر ضمن المبانى الملكية فى نفس ذلك الجانب من المدينة الذى تقع فيه دار الحكمة وعند تقاطع الشارعين الرئيسيين بالمدينة وقد وردت عبارة ذكرها كاتب روائى يسمى اخيليس تاتيوس (Achilles Tatius) يشير فيها الى « مكان كان يعرف باسم الاسكندر » وهو عند تقاطع هذين الشارعين اللذين كانت تحليهما بوائك وأعمدة أقيمت على جوانبهما ويغلب على الظن أن ذلك المكان كان الموقع الذى يقوم عليه قبر الاسكندر . وسوف يبقى هذا المكان سرا مكنونا إلى أن تكشف الصدف أو الحفائر والمخطوطات عن البينة التى تحسم هذا الموضوع .

الاسكندرية قاعدة ملك البطالمه

وعند ماجعل بطلميوس الأول الاسكندرية قاعدة ملكه كانت قد خرجت من طور الارتباك الذى يصاحب عادة المنشآت الجديدة ، ولكن كان يعوزها مع ذلك عمل كثير لتحويل تلك الكثبان الرملية والأرض القاحلة وقرية راقودة المتواضعة إلى مدينـــة هيلينية عظيمة ، وقد قام المهندس دينوقراطيس (Deinocrates) بتخطيط المدينة على الطريقة المألوفة عند اليونان بشوارعها المستقيمة المتقاطعة فى زوايا قائمة ، وهو نظام محبب إلى اليونان فى تخطيط المدن والبلدان ، وقد بنيت المدينة على رقعة غير فسيحة وهى المكان المحصور بين بحيرة مريوط والميناء البحرى وكانت البحيرة متصلة بالنيل وهو متصل بالبحر الأحمر بقناة أتمها بطلميوس فيلادلفوس كما كانت البحيرة متصلة كذلك بالميناء وعلى ذلك كانت تستخدم ميناء عذب المياه وقد بنى جسر يصل جزيرة فاروس بالساحل طوله نحو سبع فراسخ ويسمى هيبتاستاديوم (Heptastadium) وبفضل إقامة بعض المنشآت والأبنية الأخرى على الجانب الشرقى تكون ميناء بحرى عظيم هادىء شرقى هذا الجسر ، وفى الغرب منه تكون ميناء آخر سمى بميناء السلام (Eunostos) والميناء الغربى هو الوحيد الذى يستعمل حتى الآن ، وكانت المدينة تمتد طولا من الشرق إلى الغرب وكان طول المدينة يفوق عرضها كثيرا ، ويخترقها من الشرق إلى الغرب شارع عظيم هو قصبة المدينة ، عرضه يزيد على مائة قدم ويقطعه فى وسط المدينة شارع آخر ممتد من الشمال إلى الجنوب وكانت الشوارع الأخرى موازية لهذين الشارعين وتسمى باسماء خاصة من أفراد الأسرة المالكة ، وفى نهايتى ذلك الشارع الرئيسى يقوم بابان عظيمان يسمى الشرقى منهما فى العصور المتأخرة باب الشمس والغربى يسمى باب القمر وكان على جانبى هذا الطريق البوائك والعقود ذات أعمدة تحمى المار من قيظ الشمس وكانت المدينة مقسمة إلى خمسة أحياء سميت باسم أحرف الهجاء الأغريقية وكان حى الدال (الدلتا) مخصصا لليهود وكان الحى الوطنى منها فى الغرب من المدينة .

وقد ظهر منذ نشأة الاسكندرية انها ستكون كالبوتقة تلتقى فيها عناصر مختلفة من شعوب الشرق والغرب من بلاد الاغريق وآسيا وممالك لم تكن معروفة من قبل بل من مصر نفسها وتقوم بنصيبها فى بناء حضارة جديدة ممتزجة من ثقافات وحضارات شعوب مختلفة ، وكان هناك بالطبع المقدونيون

الذين لم يكونوا معتبرين حتى عصر متأخر فى عداد المواطنين الاحرار ، ولعلهم لم يكونوا كذلك منذ نشأة الاسكندرية وانما كانوا الطبقة الخاصة الممتازة من السكان المحتفظين بامتيازاتهم وكان اعترافهم بتولية الملك الجديد على البلاد أمراً له خطره وصفته الرسمية الضرورية . أما جمهور الاحرار فكانوا يونانيين ولا ريب ، وقد يدخل فى جملتهم عناصر من أجناس غير يونانية واصطبغت بصبغة هيلينية ، ولابد أنه كان بالاسكندرية لهجات كثيرة مختلفة تسمع رطانتها فى الشوارع والاسواق ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤتلفة من هذه الرطانات كانت تعرف باللهجة المشتركة (Koine) وهى اللغة التى تميز بها العصر الهيلينى الثانى وكان أساسها اللهجة الآتيكية مضافا اليها عناصر من اللهجات الأخرى .

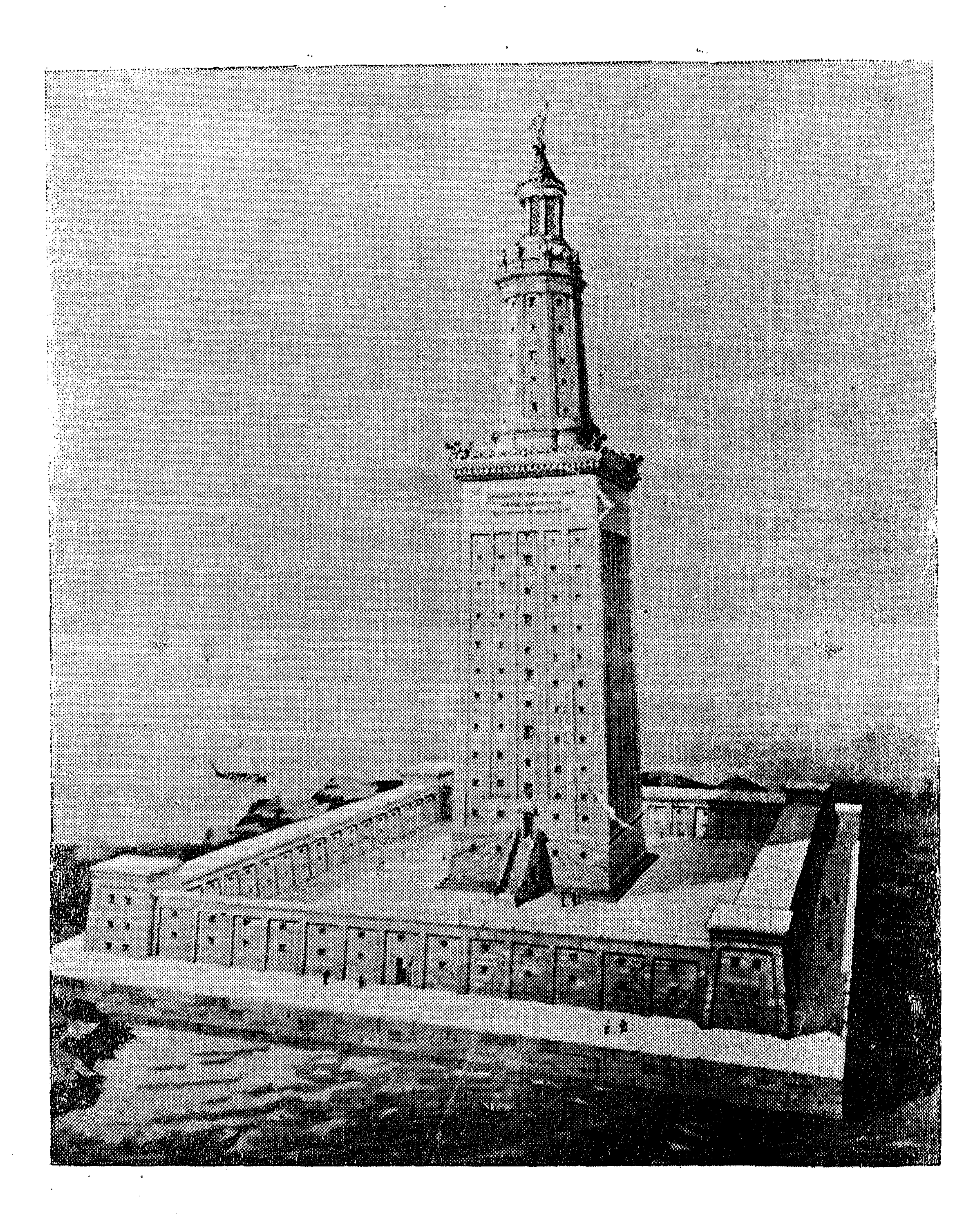
وكان يوجد غير هؤلاء الاحرار المستكملى الحقوق المدنية ، فى وقت متأخر على الأقل ، يونانيون آخرون لا يتمتعون بالحرية المدنية الخاصة بمدينة الاسكندرية كما كان يوجد منذ تأسيس المدينة جالية من اليهود زادت أعدادهم مع توالى الزمن حتى أصبحوا كثرة لهـا منزلتها واهميتها ولكنهم لم يكونوا من المواطنين الاحرار بالمعنى الاصطلاحى وانما كانوا جزءا من الجاليات الأجنبية التى كان لها نظامها الخاص بهـا من مجلس للشيوخ ومن موظفين مخصوصين وادارات خاصة بتسجيل العقود لها سجلاتها وكانت فوق ذلك تتمتع بتطبيق قوانينها الخاصة بها فى بعض الاحيان ، ومن الجاليات التى كانت بالاسكندرية الفريجيون وينتسبون إلى ولاية فريجيا (Phrygia) بآسيا الصغرى ثم الفرس وهم سلالة الذين استوطنوا مصر قبل حكم البطالمة ولم يكن لهم عصبية ولا شوكة ولا كان عنصرهم أساسيا فى المدينة ثم يلى هؤلاء جميعـا المصريون وهم من الذين كانوا يسكنون فى راقوده والذين سكنوا كانوبوس (Canopus) ومحلها الآن أبوقير ، وكان الاسكندر قد أمرهم بالتحول إلى المدينة الجديدة وكانوا محرومين من التمتع بالحرية المدنية ، وان كان بعضهم يحصل على هذه الحرية من وقت لآخـر ، ولم يكن التزاوج بين اليونانيين والمصريين معترفا به قانونا ، لكنه كان يقـع كثيرا وكان الاختلاط بين الثقافتين واقتباس اليونانيين من عادات المصريين وعقائدهم ودياناتهم أمرا لامفر منه ، وما وافت نهاية القرن الثالث قبل الميلاد حتى كان الشعب السكندرى مؤلفا من أجناس مختلطة ولم ينقض وقت طويل حتى أصبح العنصر الغالب من السكان غير يونانى ولا مقدونى وصار خليطا لا نظام له ، له أشباهه وأمثاله فى مدن الشرق الهيلينى ولا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندريين فى هذا العصر المتأخر بالاعجاب فكانوا فى نظرهم متقلبين سريعى التأثر ، عنيدين متمردين يحبون العمل ويميلون مع ذلك إلى اللهو ، وهم ثرثارون ، فيهم طلاقة اللسان ولذعه قليلو الاحترام للاديان ومع ذلك كانوا يظهرون « تعصبا دينيا شديدا فى بعض الاحيان » وكانوا دائما معرضين لأن تنتابهم حالات يفرطون فيها فى الهياج والشغب على الحكام فكانوا مدة قرون شوكة فى جانب السلطات التى كانت مسئولة عن حفظ النظام .

أما دستور المدينة فليست لدينا عنه معلومات وثيقة ولسنا نعرف هل كان بمدينة الاسكندرية

مجلس شورى (Boûlé) وهو العلامة المميزة الدالة على تمتع المدينة بحكومة ذاتية ومن المؤكد أنه لم يكن بالمدينة مجلس شورى فى عهد الرومان حتى عهد الامبراطور سبتميوس سيويروس (Severus Septimius) ولكن لايزال محل خلاف بين المؤرخين ان كان بالمدينة مجلس شورى فى عهد أغسطس ثم الغى على يديه وعلى الجملة تتلخص النظرية التى يمكن قبولها فى أن الاسكندر منح المدينة مجلسا للشورى ثم حرمها إياه أحد ملوك البطالمة ولعل ذلك كان عقب حرب من الحروب الأهلية التى ناصرت فيها مدينة الاسكندرية الفريق الخاسر ومما لاشك فيه أنه كان يوجد بها فى عهد بطلميوس فيلادلفوس مجلس للأحرار يسمى إكليسيا (Ecclesia) متمتع بالطبع بسلطة حقيقية قليلة وكان هناك موظفون عموميون عاديون نذكر من بينهم الجمناز يارك (Gymnasiarch) وهو رئيس المنتدى الثقافى ثم إكسيجيتس (Exegetes) وهو موظف كبير أشبه بعمدة المدينة أو رئيس بلديتها وله اختصاص واسع يتناول الاحتفاظ بسجل للمواطنين الأحرار ثم يوثينيارك (Eutheniarch) وهو القائم على شئون التموين ثم كوزميتيس (Cosmetes) وهو رئيس جماعة الشبان الأحرار الذين كان يطلق عليهم ايفيبى (Ephebi) وكان تدوين الأسم فى سجل جماعة الشبان الأحرار هو الوسيلة للحصول على الحرية المدنية وكان الحصول على شهادة مكتوبة بذلك بمثابة وثيقة قيمة كشهادة الميلاد فى العصور الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ عدة وثائق من هذا النوع ترجع احداها إلى العهد الرومانى وتشتمل على تاريخ الانضمام إلى جماعة السكان الأحرار واسم القبيلة والحى وعمر صاحبها واسم زوجته وعمرها إلى غير ذلك من الأوصاف والتفاصيل . وكانت الحرية المدنية التى تكسب صاحبها صفات ذات قيمة جوهرية مادية واجتماعية مطموعا فيها كثيراً . ولذلك كان التدليس فى الانتساب إلى جماعة الشبان الأحرار ممن لا يؤهلهم حق مولدهم للتمتع بهذا الشرف أمراً كثير الوقوع .وكانت جماعة الأحرار فى المدينة تنقسم إلى قبائل وهذه تنقسم إلى أقسام تنزل فى أحياء خاصة أو محلات تسمى الواحدة ديم (Deme) .

وكان للاسكندرية محاكمها الخاصة وقوانينها التى انفردت بها ، وهذه القوانين كان معترفا بها حتى فى المحاكم التابعة للملك والتى تطبق القانون اليونانى العام ، وكان الأساس فيها لحد كبير قائما على القانون المستعمل فى اتيكا ببلاد الاغريق مضافا إليها تعديلات مستمدة فى بعض الأحيان من غير نظم اتيكا ، وفى بعض أخرى روعى فيها ظروف مدينة الاسكندرية الخاصة ، وكانت تلك القوانين تكمل من وقت لآخر بما يصدره الأحرار فى المدينة من قرارات ، وكان السكان المقيمون فيها يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر ، وإلى جانب الموظفين الذين ينتخبهم الأحرار فى المدينة كل سنة كان هناك موظفون ملكيون ، وعلى ذلك كانت المدينة بصفتها مقراً للملك وعاصمة للامبراطورية البطلمية ذات مركز عجيب إذا قورنت بتلك المدن المتمتعة بالاستقلال الذاتى فى آسيا الصغرى .



المنارة (كما كانت فى عهد البطالمة)

ولما أصبحت الاسكندرية قاعدة لمصر وفي عهد النشاط والتجديد من حكم بطليوس الأول وابنه بطليوس الثانى نمت المدينة بسرعة فائقة الحد فى الجمال والبهاء ، فبدت على جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح فى أبهى حلة وهى أول الأبنية التى من هذا النوع حتى عدت إحدى عجائب الدنيا ، ووضع تصميمها المهندس سوستراتوس (Sostratus) السكنيدى واحتفل بافتتاحها فى أول عهد بطليوس الثانى ودشنت ووهبت لبطليوس الأول وزوجته وبوركت باسم الآلهين المخلصين (Theoi Soteres) وكانت تتكون من ثلاث طبقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين متراً وكان يشع منها ضوء قوى يرى من مسافة ثلاثين ميلا فى البحر ويظهر أنها كانت تحتوى بالاضافة إلى ذلك على شيء أشبه بمنظار معظم لعله كان يدار بواسطة مرايا كاسرة للأشعة .

وكان القصر الملكى فى الجانب الشرقى من الميناء الشرقى، وإذ أن الملوك المتعاقبين كانوا يضيفون أبنية جديدة اليه أصبح على توالى الزمان حيا كاملا قائما بذاته ، وفى نفس هذا الحى كانت توجد دار الحكمة أو الاكاديمية أو المحفل الجامعى إن صح هذا التعبير (Museum) موطن تاسوع أرباب الفن (Muses) وبها المكتبة المشهورة والى الغرب قليلا بنى فيما بعد معبد سمى بالقيصرى أو قيصر يوم (Caesareum) بدأت فى بنائه الملكة كليوباترة السابعة المشهورة تكريما لزوجها انطونيوس ثم أكمل بعد فتح الرومان لمصر تكريما للامبراطور أغسطس . وقد وصفه المؤرخ اليهودى فيلون (Philo) فى منتصف القرن الثانى فقال « لا يوجد فى العالم بأسره مثل هذا الحرم المقدس المعروف باسم سيباستيوم (Sebasteum)وهو معبد قيصر حامى البحارة تبدو معالمه واضحة جلية فى مدخل الميناء ولا يخطئه الانسان لعظم حجمه ولا يجاريه معبد من حيث غناه بالعطايا والهبات والنذور وتحيط به الصور والتماثيل من فضة وذهب وعلى ساحته الفسيحة أقيمت الدهاليز والممار المسقوفة والمكتبات وحجرات خاصة بالرجال وخلوات للعبادة ومدخل فى مقدمه أقيم على شكل بوابه وتحيط به بعد ذلك ساحات فسيحة غير مسقوفة وفى الحقيقة أنه زين على أفخم صورة تبعث الأمل فى السلامة والنجاة فى نفوس أولئك الذين يرحلون عن المدينة وأولئك الذين يرسون على شاطئها » .



بطليوس الثانى
فى زهرة شبابه

وكان من الأبنية الأخرى الشهيرة ضريح الاسكندر ومقبرة البطالمة المتعاقبين وملعب الجمنازيوم أو دار الندوة الثقافية (Gymnasium) ومعبد السرابيوم (Serapeum) الذى كان ضريحا للاله سيرابيس (Serapis) الذى ابتدعه البطالمة لتكون عبادته ،كما سبق أن بينا، حلقة اتصال بين الاغريق والمصريين ولذلك كان من المناسب أن يشيد معبده فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى . وفوق ذلك كان فى الاسكندرية حدائق وبساتين كثيرة لأن السكندريين كانوا يشاركون المصريين فى حبهم للازهار، وكان منظر بائعى الأزهار وطاقات الريحان مألوفا فى شوارع المدينة . ويظهر أن بطليوس الثانى أعاد

تسمية شوارع المدينة بطريقة نظامية تكريما لأخته المتوفاة ارسينوى الثانية (Arsinoe II) وهى زوجته فاطلق اسمها على عدة شوارع ملقبا اياها بألقاب آلهة اليونانيين .

دار الحكمة والمكتبة

ولم ينس البطالمة حرصهم على مظاهر العظمة المادية لعاصمة ملكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها فقد اشتهرت قبل كل شىء بدار الحكمة أو الأكاديمية ودار الكتب ، ويظهر أن الأولى كانت فى بادىء أمرها معبداً للتاسوع الإلهى ويمثله آلهة تسعة تحمى العلوم والفنون المختلفة وترعاها ولها رئيس هو سادن لهذه الآلهة ولكنها كانت فى الحقيقة جامعة عظيمة أو كلية قريبة الشبه جداً فى تكوينها ونظمها بأحدى كليات جامعتى اكسفورد أو كامبردج فى عصرنا الحديث ، كان العلماء من مختلف الاجناس والانواع يلتقون فيها وتمنحهم الحكومة مرتبات من خزانتها الملكية وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الدار الحكمية من الموارد المعتادة استطاع علماؤها أن يتوفروا على اعمال البحث والتنقيب لأن التعليم والتدريس لم يكن عملا إجباريا فيها، وقد ساهم البطالمة الأول بقسط وافر فى تأسيس هذه الدار وتقديم العون لها تحدوهم رغبة أكيدة فى النهوض بالعلوم وتشجيع الأدب الأغريقى فى الاسكندرية ،فكان بطلميوس الأول نفسه من رجال الأدب، ومن آثاره الأدبية وصف لحملات الاسكندر وقد أحاط نفسه بحاشية من العلماء والفلاسفة فبعث يدعو من جانبه العلماء من شتى الجهات وكان يستهويهم بشتى الأساليب لحظوا بمودته وكان سخيا نحو هذه الشخصيات الفذة من الشعراء والفلاسفة وعلماء الرياضة والنحو بقدر ما كان لين العريكة

ولم يكن استهواء العلماء الى الاسكندرية بالأمر الكافى إذ لابد من الاحتفاظ بهم وتهيئة الجو الصالح لمن كانوا يحيطون بالملك من ذوى المواهب وقد حضروا الى مصر ضيوفا مؤقتين تلبية لنداء الملك الذى جذبهم إليه بكرمه وسخائه وقد يرحلون عن الاسكندرية مرة أخرى من غير أن يتركوا أثرا باقيا يدل على إقامتهم فيها مالم يصبحوا مشغوفين بعمل ذى صبغة عامة وتستهويهم بعض المغريات القوية وقد حرص الملك على أن يقدم لهؤلاء العلماء الأعلام الضمان الكافى بأنهم سوف يلقون فى الاسكندرية رفقاءهم وزملاءهم الذين يستمتعون بوجودهم وانهم سوف يجدون مايلزمهم من الكتب والفرص وما يحتاجون إليه من فسحة فى الوقت لمتابعة دراساتهم ، هذا الى مايسبغه ملك مستنير من جود وعطف وعندئذ أخذ الجميع يرحلون الى تلك الكعبة التى كانت تنتظر وفادتهم .

وكان ملك مصر غيوراً على تأييد هذه النهضة الأدبية خشية أن يسبقه غيره من الملوك فى هذا المضمار فى عصر كان فيه أكثر الملوك بعدا عن الاغريقية وامعانا فى الاعجمية سباقا فى البذل والسخاء لتشجيع العلماء والأدباء فكان لملوك السلوقيين وملوك برجاموم فى آسيا الصغرى دور الحكمة والمكتبات التى تزخر بالعلماء فهل كان فى وسع بطلميوس أن يغفل ناحية فيها بهجة وبهاء فى نظر الاغريق فلا يحتضن العلماء والادباء من غير أن تتعرض هيبته للضياع ؟ إنه سارع إلى

تأسيس دار الحكمة ودار الكتب فكانتا سباقتين فى مضمار العلوم والفنون وبزتا زميلاتهن بفضل ما أسبغه الملك عليهما من عون وتشجيع .أما من يستحق الفخر من البطالمة الأولين بنسبه انشاء هاتين المؤسستين اليه وهل هو بطلميوس الأول (سوتر)أم بطلميوس الثانى (فيلاد لفوس) فانه من المستحيل علينا أن نقطع فى هذا الأمر برأى حاسم إذ أن النصوص القديمة قد تضاربت فى أقوالها ويميل بعض المحدثين من العلماء إلى تأييد القول بأنه كان بطلميوس الثانى .

لقد أوضحنا المشاعر التى جالت بخاطر بطلميوس الأول وحفزته إلى تأسيس المكتبة ولكن هذا العمل لايمكن أن يتم فى يوم وليلة وكان من أولى جهوده فى هذا الصدداقتناء كثير من الأصول الخطية لأشهر المؤلفات إما بالشراء من أصحابها سواء كانوا أفرادا أم هيئات مدنا أم ملوكا وبعض هؤلاء لم يكن فى الكثير الغالب راغبا فى بيعها فكان بطلميوس اذاً مضطرا أن ينسخ بعض صور كانت تكلفه أموالا باهظة ،ولقد عمد الملك البطلى إلى كثير من الأساليب والحيل فى سبيل الحصول على الكتب النادرة ، هذا إلى أن بطلميوس الأول كان فى أثناء الجزء الأول من حكمه مشغولا عن تلك النواحى الثقافية بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه ونظرائه الأقوياء فكان ينتقل من ميدان لآخر تارة مدافعا وتارة مهاجما فهو حينا فى قيرنيه وبرقة وحينا آخر فى رودس أو قبرص وقد نجده بعد ذلك فى سوريا أو ليشيا الواقعة فى آسيا الصغرى وعلى ذلك لم تتح له الظروف مايلزم من الفراغ أو فسحة من الوقت للنهوض بذلك المشروع وما نظن أنه فى اول الأمر وجد من المال مايتطلبه لتنفيذه أما فى الشق الثانى من حياته فكان أكثر هدوءا واستقرارا بعد أن أقام ملكه على أسس ثابتة ودعائم قويه فكان فى وسعه أن يكرس جهوده فى كثير من السخاء للمنشآت السلمية وصادف فى ذلك الوقت (عام ٢٩٩ ق.م.) ان كان ديمتريوس الفاليرى (Demetrius Phalerius) الفيلسوف قد نفى من أثينا فلجأ إلى رحاب بطلميوس سوتر كما يؤويه، وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وشهرة عالمية وكان يحيط بكل ما فى استطاعة البشر أن يدركه فكتب وصنف فى كل موضوع يمكن تصوره فى تاريخ وسياسة وخطابة واخلاق ونحو ، وكان يعالج اسمى الموضوعات وأكثرها دقة وصعوبة فلما لجأ ديمتريوس الفاليرى إلى مصر أكرم بطلميوس وفادته ورحب به وانتفع بعلمه وذهنه الوقاد بأن وكل اليه الاشراف على المكتبة ولا يمكن أن يكون قد أسند اليه وظيفة رسمية شبيهة بتلك التى تولاها مديرو المكتبة وأمناؤها الذين خلفوه فالمكتبة لم يكن لها وجود حتى ذلك الوقت ولم يكن هناك شخص أقدر على تنظيمها من ديمتريوس هذا، وبناءاً على مشورته اشترى بطلميوس كتبا فى كل فن وإذا صدقنا ماجاء فى مختلف المصادر القديمة عن محتوياتها فانها كانت تضم مالا يقل عن ٢٠٠ر٠٠٠ مجلد فى نهاية حكم بطلميوس سوتر وكان ديمتريوس يقدر أن يصل هذا العدد الى ٥٠٠ر٠٠٠ نسخة ولكن هذا الحلم لم يتحقق فى عهده فبطلميوس الثانى كان يشك فى اخلاص ديمتريوس لما أسداه من نصح للملك بطلميوس سوتر فى أخريات أيامه بالا يحرم الأبناء الكبار من تولى العرش من أجل تفضيل الابن الأصغر ولكن الظروف كانت مواتية لبطلميوس فيلادلفوس فتولى العرش ونفى ديمتريوس الى حيث

مات فى منفاه ، وفى أثنـــــاء حكم فيلاد لفوس الذى كان طويلا وناجحا لم يكف الملك عن شراء الكتب من البلاد المجاورة وبخاصة من رودس وأثينا، وعند موته تضاعف عدد الكتب، وفى تقرير رسمى رفعه أمين دار الكتب المسمى كاليما كوس (Callimachus) ذكر فيه أن دار الحكمة تحتوى على ٤٩٠٠٠٠ مجلد مشترك وذلك بخلاف النسخ المكررة فى المكتبة الكبرى؛ وبعد أن بلغ اتساعها مبلغا عظيما وتضخمت أعدادها أسست مكتبة ثانية أقل أهمية فى السرابيوم حيث وضعت الكتب التى تقل أهميتها والنسخ البديلة وكانت المكتبة الصغرى فى السرابيوم تسمى بالبنت تميزا لها عن الأم الكبرى وتحتوى على ٤٢٨٠٠ مجلد لعل أغلبها من النسخ المكررة، وقد حمل بطلميوس الثالث اللواء بعد أبيه وتابع السياسة التى رسمها له ولم يضن بصرف أى مبلغ فى سبيل جمع أندر الكتب ونقلها إلى الاسكندرية وقيل أنه اصدر أمرا يقضى بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون على شواطىء الاسكندرية ما قد يكون معهم من الكتب وأن يبعث بها إلى دار الكتب ويتسلم اصحابها بدلا عنها نسخا رسمية ، ولا بد أنه فى عهده زادت أعداد الكتب القيمة، ولسنا نعرف مبلغ التراخى فى هذه السياسة فى العهود التى تلت حكم يورجيتيس الأول وبخاصة فى آخر ايام أسرة البطالمة؛ ومهما يكن من أمر فانه فى الوقت الذى حدث فيه حريق الكتب فى الاسكندرية فى عهد يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. كانت بدار الكتب الكبرى والصغرى بالسرابيوم نحو ٧٠٠٠٠٠ مجلد ولما آل الأمر إلى انطونيوس أراد أن يعوض ماخسرته الاسكندرية من كتب فى هذا الحريق فمنح كليوباترة السابعة نحو ٢٠٠٠٠٠ مجلد من مكتبة برجاموم وهى مكتبة لا تقل كفاية ووفاء عن مكتبة الاسكندرية . واستمرت مكتبة الاسكندرية فى العهد الرومانى تفاخر بمحتوياتها التى كانت تعد بمئات الألوف من اللفائف والمجلدات.

ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وأنما كانت تشتمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الأخرى وأنه لمن حديث الخرافة أن يقال أن الترجمة السبعينية للعهد القديم أو التوراة كانت بأمر بطلميوس الثانى ، والحق أنها صدرت تدريجيا كيما ينتفع بها جمهور الاسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيلينى وكانوا أعرف باللغة الاغريقيه منهم بلغتهم الأصليه .

موقع دار الحكمة والمكتبة من الاسكندرية

أما موقع دار الحكمة فإن من الصعب تحديده بالدقة ، وقد يساعد الوصف الذى جاء فى جغرافية سترابون (الكتاب السابع عشر) على تحديد هذا الموقع فى محيط لا يمكن أن يكون خارج نطاقه، وبحسب ما جاء فى سترابون كانت هناك سلسلة من المبانى الملكية التى شيدها البطالمة فى حى المدينة المحصور بين رأس لوخياس (Lochias) فى الشرق وبين الملعب فى الغرب ،وكانت هذه الأبنية الملكية ممتدة على طول الميناء الكبير ، وفى آخر عصر البطالمة أقيم بناء القيصريوم فيما وراء هـــذه الأبنية الملكية ، ثم كان يلى ذلك سوق المدينة ومستودعات البضائع وأحواض السفن لترميم المراكب ، وهذه كانت تمتد حتى رصيف الهيبتاستاديوم ذى السبع فراسخ ، وعلى ذلك فالمبانى الملكية التى كانت دار الحكمة جزءاً منها بحسب ماجاء فى سترابون كانت كلها متقاربة بعضها من بعض . وإذاً فموقع

دار الحكمة إما أن يكون على ساحل الميناء الكبير نفسه بين الملعب ورأس لوخياس وإما أن يكون فى الصف الخلفى من الابنية مباشرة ، وهذا ينفى القول بوقوعها فى وسط المدينة تماما أو فيما وراء الشارع الكانوبي ، كما تسرب الظن بذلك الى بعض الحديثين، اذ من المستبعد أن تكون دار الحكمة واقعة على مسافة بعيـــدة من الابنية الملكية أو فى الجانب الآخر من الشارع الكانوبى الذى كان بسبب اتساعه يفصل المدينة الى شقين ، ولما كانت الابنية الملكية فى مجموعها تشغل جزءاً من مسطح مثلث قائم الزاوية فإن الخط الذى يمثل رصيف الميناء يكون وتر ذلك المثلث والشارعان الرئيسيان بالمدينة يمثلان ضلعيه الآخرين ، ومبنى دار الحكمة والمكتبة كان بالتأكيد أقرب الى وتر ذلك المثلث منه الى رأسه عند النقطة التى يتقاطع عندها الشارعان الرئيسيان وهى مركز مدينة الاسكندرية. ولما كان طول رصيف الميناء اذا قيس من داخل رأس لوخياس الى الملعب يقدر بنحو سبعمائة متر فإن دار الحكمة قد تقع على هذا الخط على مقربة من الملعب ومن شاطىء البحر ، ولا يمكن أن تكون دار الحكمة والمكتبة — اذا صح أن الاخيرة كانت تمثل أحد مبانى دار الحكمة كما هو الغالب على الظن — بمنأى بعيد عن الملعب ولا أن تكون واقعة فى المكان الذى أقيمت فيه المخازن وأحواض الميناء وأرصفتها ، حقيقة أن المؤرخ ديوكاسيوس (Dio Cassius) ذكر أن أحواض الميناء « ومخازن الغلال ومستودعات الكتب » قد التهمتها النيران نتيجة للحريق الذى اشتعل فى المراكب الراسية فى الميناء فى اثناء الموقعة بين يوليوس قيصر وبين آخيلاس قائد جيوش بطلميوس الصغير ، ولكن تلك المخازن التى أشار اليها ذلك الكاتب لا يمكن أن تكون سوى المخازن التى أشار اليها سترابون فى كتابه السابع عشر عندما تحدث عن الحريق الذى اشتعل فى هذه الانحاء فى أثناء حرب الاسكندرية التى خاضها يوليوس قيصر ، وأنه لمن المستبعد أن تكون مخازن الكتب هذه هى بعينها مكتبة الاسكندرية المشهورة ، ويغلب على الظن انها كانت مجموعة من الكتب أودعت مؤقتا باحواض السفن أو كانت مكدسة على سبيل التخزين فى المنازل القريبة المجاورة أكلتها النيران عندما اشتعلت فى ذلك الجزء من المدينة، ولعل قيصر كان ينوى أن ينقلها الى رومامتى سنحت الفرصة . وانه لمن البعيد أن نصدق القول بأن المكتبة كانت واقعة على مقربة من الترسانة ، واننا نكون متمشين مع طبيعة الأشياء إذا قلنا ان المكتبة المشهورة كانت جزءا من دار الحكمة ، وفى قول يوليوس قيصر نفسه فى الكتاب المنسوب اليه وهو يصف حرب الاسكندرية ما يلقى بعض الضوء إذ تعرض لمبانى المدينه وطبوغرافيتها فقال فى الفصل الأول « وذلك ان الاسكندرية تكاد تكون آمنة من الحرائق إذ أن مبانيها خالية من العقود الخشبية وهى مزودة بالحوائط الضخمة والسقف المعقودة والأقبية، وسقفها مبنية من قطع الأحجار أو هى عبارة عن تبليطة مستوية السطح ».

واعتمادا على هذه البينة التى يسوقها يوليوس قيصر يمكن القول بأن الأبنية الضخمة ذات الروعة والفخامة فى الاسكندرية كانت لا تعتمد على الاخشاب ومسقوفة بأسطح قوامها الحجر وهى بذلك

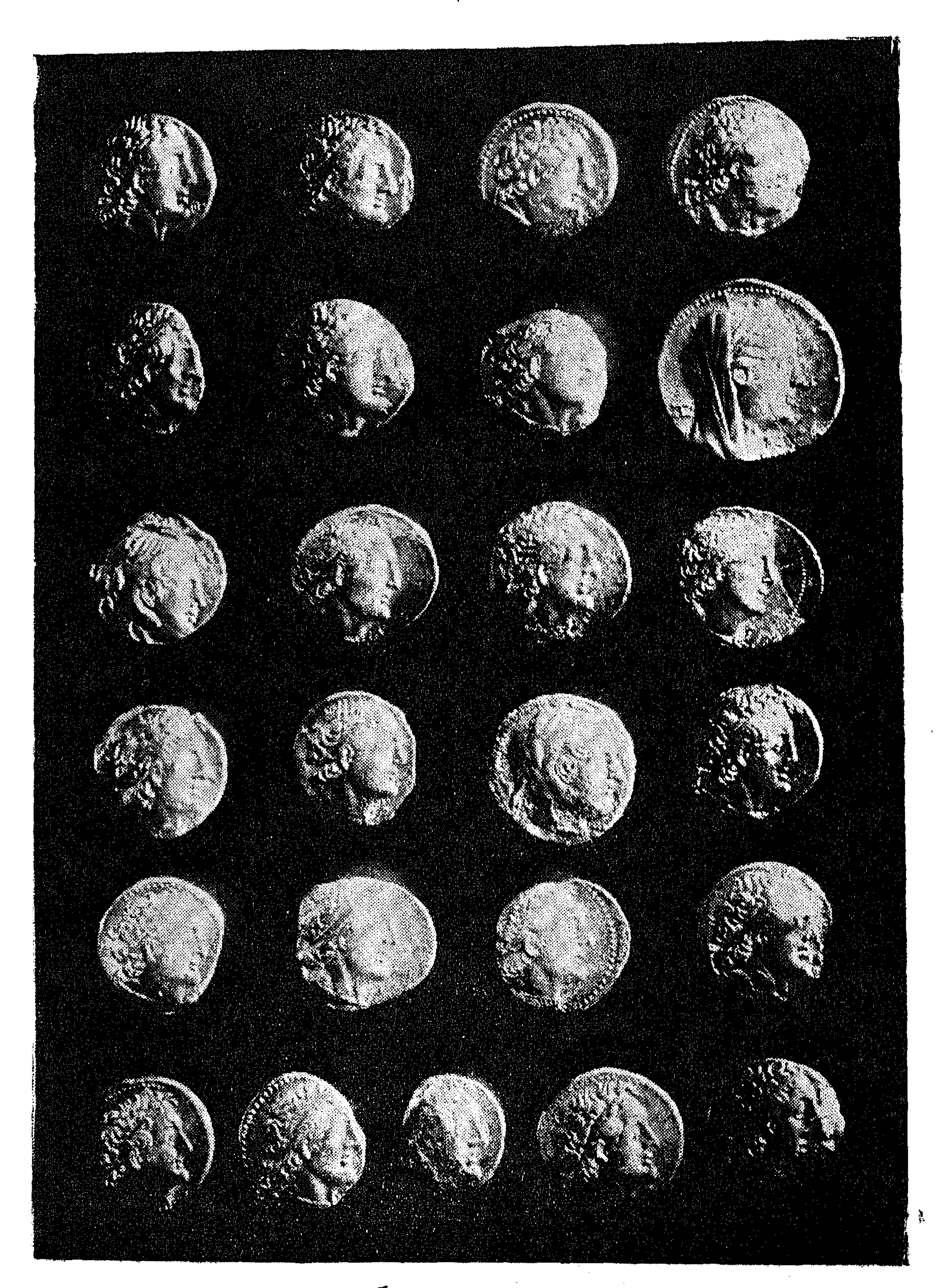
غير قابلة للاحتراق . فدار الحكمة والمكتبة كانتا إذاً آمنتين من التهام تلك النيران التى أتت على المخازن ومستودع البضائع والمواد المكدسة فى الترسانات .

وكانت أبنية دار الحكمة محاطة بالأفنية والساحات والمماشى والدهاليز والأروقة تظللها الاشجار، وعلى كلا الجانبين كانت هناك ساحة غير مسقوفة ومجهزة بمقاعد وفيها يلتقى اعضاء دار الحكمة لتأدية عملهم وللمناقشة فى الامور الهامة وكانت هذه الساحة تستخدم لغرضين وهما الدرس والبحث ثم عقد الاجتماعات التى تجرى فيها مناقشات عامة والى الخلف من هذه الساحة كان يوجد مايسمى بالبيت (Oikos) الذى كان بمثابة حجرة المائدة وقد وصف سترابون هذا البناء الرئيسى وأشار الى غيره من الأبنية الشاسعة التى كانت ملحقة به والى تلك الأبهاء المتقاطعة والمتنزهات التى كان يجمع فيها فيلادلفوس مختلف الحيوانات الغريبة وحديقة النباتات النادرة وبالجملة فانه فى هذا المحيط كان يجتمع كل شىء يثير فى النفس حب البحث العلمى ويبث النشاط واذا استطعنا أن نتصور تلك المجموعه من المبانى الواسعه بأروقتها الفخمه وأعمدتها الرشيقة وقبابها العالية وما كان يجرى فى داخلها من حياة حافلة بالنشاط العلمى لأولئك العلماء الذين كانوا ينزلون ضيوفا عليها ويعقدون اجتماعاتهم لمناقشه بحوثهم بمنأى عن ضوضاء المدينة وجلبتها ثم يعكفون على كتابة مؤلفاتهم التى ذاع صيتها — أمكننا أن ندرك مبلغ جمال هذه الأبنيه وأن نقدر ذلك الهدوء وأهمية تلك الموارد التى كان يهيئها ذلك الملاذ الرحب من رغد العيش لتلك النخبه الممتازة من العلماء المجدين فى عصر لم تكن الهيئات العلميه قد عرفت بعد .

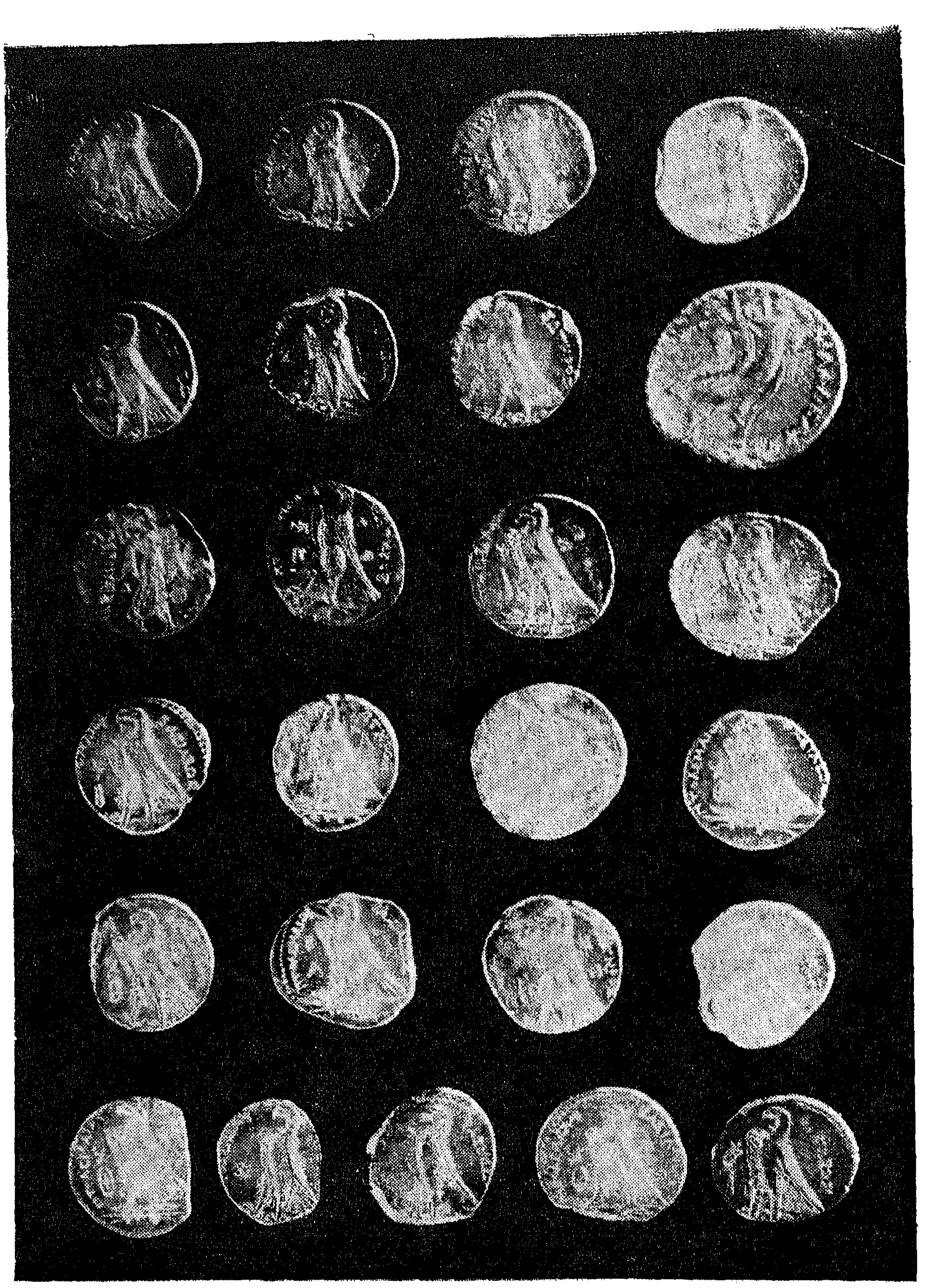
كانت إدارة دار الحكمة فى أيدى كاهن أعظم تغلب فيه الصفة الإدارية على الصفة العلمية وكان اعضاء هذه الدار الحكمية ويبلغ عددهم نحو مائة يستولون على رواتب من الملك كما كان لتلك الدار أوقاف تدر عليها الأموال وموارد قائمة على التبرعات والهبات والمصروفات التى كان يدفعها الراغبون فى تلقى التعليم ،ولما كان لأولئك العلماء مخصصات سنوية من قبل الملك فانهم كانوا يحرصون دائما على رضائه وحسن ظنه فيهم فكان له أن يستبقيهم أو يقصيهم حسبما يشاء . حقا انها لفكرة سامية تلك التى أوحت انشاء دار الحكمة ولكن كيانها كان متوقفا على تلك الارادة السامية وقد تكفى سورة غضب أو مجرد نزوة فتشرد تلك الهيئة ومع ذلك فقد عمرت مدة ستة قرون تقريبا ولم يكن السبب فى حلها أمير من أمراء البيت البطلمى وانما اختفت وتوارت عن الابصار فى أثناء حرب أهلية نجم عنها تخريب الحى الملكى المسمى براخيوم (Brucheion) بأكمله فى عهد الامبراطور أورليان .

الحركة الفكرية فى المدينه

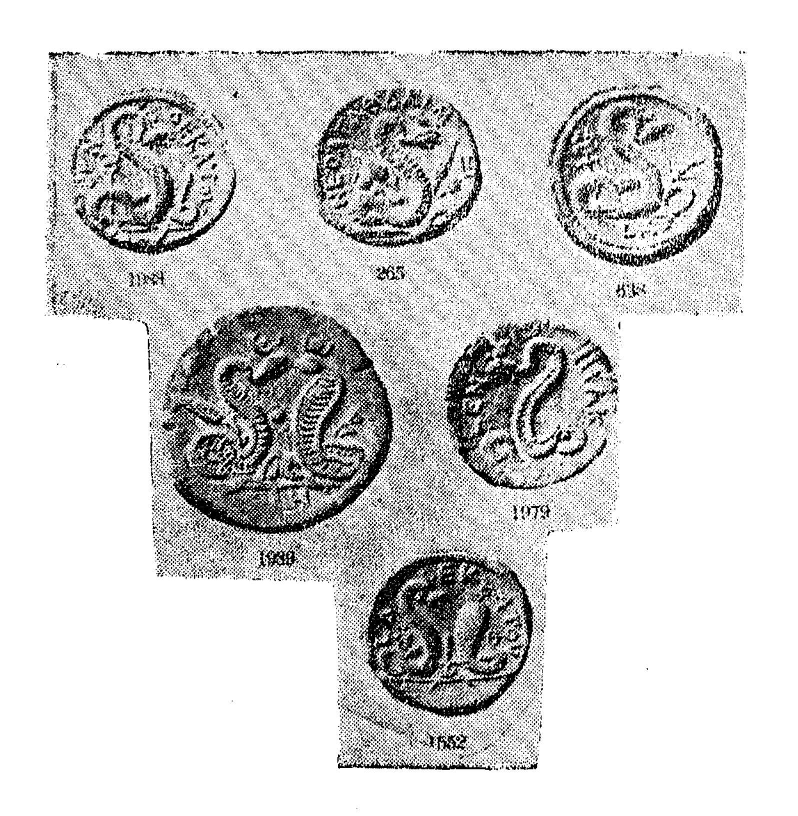
وقد صدر عن تلك الدار مؤلفات عالية القدر تناولت شتى الموضوعات فكانت فخر صدر عصر البطالمة وكسبت للاسكندرية شهرة عالمية فكانت هذه الدار بمثابة «أكاديمية» ولكن ليس لاعضائها الحق فى اختيار زملائهم الذين يملأون مايحدث من فراغ فى صفوفهم وكانت فى الوقت نفسه مدرسة



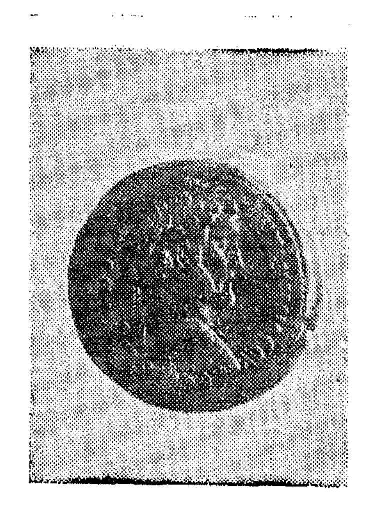
عملة يونانيـــة ضربت فى الاسكندرية



عملة يونانية ضربت فى الاسكندرية



عملة تمثل مدينة الاسكندرية



عملة ضربت بالاسكندرية وعليها
رأس الامبراطور أنطونيوس بيوس

يقوم أعضاؤها بالتعليم إلى جانب التأليف فكان لهؤلاء العلماء الاعلام تلاميذهم وحواريوهم الذين يحضرون على اساتذتهم لتلقى أساليب البحث العلمى فكان بها أشهر علماء فقه اللغة والنحاة وكان من بينهم سوسيبيوس (Sosibius) الاسبرطى ذو العقل الراجح .

وفى أزهى العصور التى شهدتها هذه الدار وضعت المؤلفات الضخمة لأمثال زينودوتوس (Zenodotus) وكاليماكوس (Callimachus) وايراتوسثينس (Eratosthenes) وثلاثتهم كانوا على التوالى أمناء للمكتبة وهم الذين توفروا على تنظيم الأدب الاغريقى وتبويبه وشرحه والتعليق عليه بالنقد ثم تولى الأمانة العامة للمكتبة من بعدهم أبولونيوس الرودى واريستوفانيس البيزنطى ثم أريستاركوس (Aristarchus) ، وان هذه الاسماء الضخمة لتمثل مجملا تاريخيا لكل عصور الأدب السكندرى طوال فترة تقرب من قرن ونصف (٢٨٢ — ١٤٥ ق . م .) وان الرسائل والمقالات التى صنفها زينودوتوس عن هومر والشعر الذى دبجه يراع الشاعر كاليماكوس من أناشيد ومراثى وملاحم ومقطوعات حكمية ومؤلفاته فى فن المكتبات ثم شعر أبولونيوس الرودى الدال على علم واسع وأبحاث اراتسثينيس فى التاريخ والجغرافيا وعلم الفلك ومختلف العلوم ، هذا إلى الكشوف التى تمت على يدى اريستوفانيس البيزنطى واريستاركوس فى عالم النقد الأدبى — كل هذه ثمار اينعت وأخرجها علماء دار الحكمة وهى تكفى لتبرير وجود هذه الدار ولضمان شهرتها .

ولكن ألوان الأدب التى تميزت بها الاسكندرية لايمكن أن تقارن بما أخرجه اليونان من الأدب فى العصور الكلاسيكية الزاهرة ومع ذلك كانت آداب الاسكندرية ذات طابع خاص له قيمته . ومن المسلم به أن طابع الأدب السكندرى كان يوصف بالتكلف والتصنع فقد اظهر كتاب مدرسة الاسكندرية من العلم والمعرفة مالم يستطع قراؤهم استساغته وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس تسمى بالأسباب (Aitia) وهى تلقى لنا بعض الضوء على طريقته فى صناعة الشعر فتظهره جالسا على مائدة يجمع بشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادر كيما يصوغها فى قصيدته وهذه طريقة طريفة تدل على روح العصر .

وكان من آثار هذه النزعة فى هذا الشاعر أن جاء بالشعر النفيس العالى القيمة والذى لم يبرأ من التصنع ولم يخل أدب السكندريين عامة من هذا العيب ومع ذلك فان أناشيد كاليماكوس وملاحم ابولونيوس الرودى تحتوى على مزايا حقيقية إذا قدرنا مافيها ولم نبحث عن صفات لم تجل بخاطر مؤلفيها — وأن تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الأثر فقدموا لنا الأناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيوكريتس (Theocritus) نوعا جديدا وأسلوبا فذا فى المعالجة لم يجاره فيه أحد فيما بعد ، وأن موضوع الحب الخيالى الذى عرفه كتاب الاسكندرية ولكنهم لم يستعملوه بقدر كاف فى ذلك العصر — كان مما أثر فى مجرى الأدب الأوربى وتوجيهه .

ولكن خدمات السكندريين للأدب لم تقتصر على انتاجهم الخاص منه فان علماء دار الحكمة

وفقوا لاختراع فن النقد الأوربى وأن عملهم فى هذا المضمار لم يخل من شوائب ومع ذلك فاننـا مدينون لهم فيه بدين عظيم . وإذا كان من الثابت كما يؤخذ من أوراق البردى أن نصوص نفر من المؤلفين القدامى قد أصبحت فى القرن الثالث قبل الميلاد محرفة بما أصابها من المسخ والتشويه فانه يرجع إلى علماء الاسكندرية وأدبائها أكبر الفضل فى أعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقى لدينا من مادة النصوص التى نقرأها اليوم ، ومن يدرى فكم من نصوص الأدب الأغريقى الذى نستمتع بقراءته اليوم كانت تعبث به أيدى البلى والدثور وتعدوا عليه عوادى الزمن لولا ما قام به علماء الاسكندرية ونقادها من غيرة وجهد فى البحث عن أصول ونصوص كتب ذلك الأدب الأغريقى الخالد ؟

ولعل الاسكندرية قد برزت فى العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة فى علمى التشريح والجراحة وبزت نظائرها من المدارس الأخرى بمراحل كثيرة ، أما فى علم الاحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله فى العلوم الأخرى ، على ان دراسة علم الاحيـاء تقدمت فيها بلا شك بفضل حديقة الحيوان التى أسسها البطالمة ، وكان أكبر نصر أحرزته فى ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا ، وفى الاسكندرية سبق أريستاركوس العالم كوبرنكس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة أن الأرض تدور حول الشمس ، وقاس اراتسثينيس قطر الأرض ووصل فى بحثه إلى رقم لايختلف عن طوله الحقيقى إلا بمقدار خمسين ميلا « وكتب أقليديس (Euclid) كتابه المسمى العناصر ومن بين الذين درسوا هناك كان ارشيميديس (Archimedes) وبطليوس وهيرون (Heron) الذى كاد يخترع الآلة البخارية أو على الأقل قد وصفها ، ولكن الجمود العجيب والخمول الذى اعترى الذكاء اليونانى قبل العصر المسيحى بقليل حال دون أن يوفق اليونان إلى معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل أن هذا الجمود أدى بهم إلى إهمال العلوم التى كشفوها من قبل .

الحركة التجارية والصناعية فى المدينة

وما انتصف القرن الثالث حتى صارت الاسكندرية أعظم مدينة ، وأصبحت مركزاً تجارياً هاما فى العالم الاغريقى ، يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجار والجنود والمشتغلون بالزراعة ، والسياح الذين قصـدوا رؤية معالمها وآثارها . كل أولئك قصدوا إليها من كل حدب وصوب إما للاستقرار فيها وإما لمتابعة سيرهم إلى مصر الوسطى أو العليا ، حيث كانت البلاد بفضل الاصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التى نهجها الملوك قد تحول كثير من أراضيها البائرة إلى مزارع مثمرة . وتضاعفت غلات الأرض وثمراتها فى كل مكان ، وكان إقليم الفيوم بصفة خاصة محط تجارب زراعية ، وطبقت فيه أحدث الأساليب فى الزراعة والإنتاج فأتى بخير الثمرات ، وأصبح مضرب الأمثال فى حسن الاستغلال والاستثمار وخاصة فى أشجار الفاكهة والكروم والبساتين . وكانت المنتجات الواردة من مختلف أنحاء العالم ترى على أرصفة الاسكندرية التى مثلت دوراً هاماً فى توزيع هذه المتاجر



تمثال صغير من الفخار المطلى بالجبس الملون (تاناجرا) ويمثل إحدى الصناعات الهامة
بالاسكندرية فى العصر اليونانى الرومانى

فكانت تتسلم من الخارج ما كانت مصر فى حاجة إليه ، وفيها تتركز المتاجر ثم منها توزع إما إلى الجنوب أو إلى الشمال ، فالمحاصيل الافريقية وكثير من محاصيل الشرق الأقصى التى كانت ترد عن طريق بلاد العرب والمحاصيل الايجية تنساب كلها إلى هذا المركز الرئيسى من غير انقطاع ، فالعاج وخشب الأبنوس والذهب والتوابل والخيول كانت ترد من افريقيا ، ولم تنقطع عنها حاصلات الهند . وكان يباع الحرير الوارد من الصين فى الاسكندرية فى عصر متأخر ، وكان يرد من بلاد الاغريق الزيت والنبيذ والتين واللحوم الباردة والسمك المجفف والاسفنج . وكان القمح والشعير وما إليهما من غلات مصر يحمل فى النيل فى مراكب إلى سوق الغلال العظيمة ومخازنها فى الاسكندرية ، وكان القمح وتجارة الحبوب أهم مصادر الإيرادات المصرية . ومثلت هذه التجارة دوراً فى حياة مصر يشبه الدور الذى تمثله تجارة القطن فى العصر الحديث . وكانت تصنع فى المدينة نفسها مواد كثيرة وعلى الأخص الزجاج الذى أخذ فى الانتشار فى العالم عن طريق الاسكندرية وأصبحت له شهرة واسعة فوصل إلى بلاد الصين ، ثم كان يصنع بها الكتان وورق البردى ، وكان فن النقش على الخشب والعاج والمعادن فناً مشهوراً فى المدينة ، فكانت السلع السكندرية فى القرن الثالث تلقى رواجاً عظيما ويمكن مقارنتها بتلك التى كانت تصنع فى باريس فى القرن التاسع عشر . وكانت الحركة التجارية فى الاسكندرية على أشدها ، وقامت فيها نقابات المصدرين الذين كانوا عنوانا على النشاط التجارى ، وقامت فيها دار السكة المشهورة بتقديم العون فى تقويم العملات القديمة والأجنبية واستبدالها بأخرى جديدة (١) .

سكان المدينة

وكان سكان الاسكندرية ، ولا ريب ، يمثلون أنواعا جنسية عديدة فتلتقى أخلاطهم فى شوارعها كما هو الحال فى القاهرة فى العصر الحديث وفى وثيقة بردية تحتوى على عقد للقيام برحلة تجارية الى بلاد الصومال لشراء توابل نجد بين المتعاقدين والضامنين لهم رجالا من اسبرطه وايطاليا وقرطاجه وماسيليا (مارسيليا) ورجلا يلمح من اسمه انه رومانى ، وفى عقد دين مؤرخ فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد نجد فارسيا من الحرس الملكى ورومانيا وثلاث رجال من برقة. ويكفى أن نذكر الحوار الذى جرى بين متشاحنين فى أحد شوارع مدينة الاسكندرية وقد اصطف على جوانبها جمع من الناس لمشاهدة أحد المواكب فى عصر بطلميوس الثانى ورواه الشاعر ثيوكريتس فى قصيدته الراعوية الخامسة عشر التى تصف أجنبياً ضاق بحديث امرأة ثرثارة من سيراكيوز تسمى « براكسينوا »

(١) تحتوى وثائق هذا العصر البطلمى على معلومات قيمة عن تلك الحركة التجارية والنشاط الاقتصادى الذى دب فى البلاد فكان له صداه فى الاسكندرية وسوقها التجارية (امبريوم) وتنوعت المكوس التى كانت تجبى على الصادرات والواردات وأفردت لها فى السجلات صفحات برمتها فصلت أنواع الحاصلات وما قدر عليها .

(Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيهما قائلا « أيتها المرأتان ألا تنتهيان عن هذه الثرثرة حتى لكأنكما زوج من الحمـــام ، ان سماع هذه اللهجة الدورية ذات اللكنة ، ثقيل على أذنى ومضن لى حتى لينفذ صبرى قبل نهايته » فأجابته « براكسينوا » « يا للعجب من أى أرض جاءنا هذا الشخص ؟ وما شأنك بنا وماذا تعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشترى عبيدك أولا قبـــل أن تأمر وتنهى فيهم . اعلم ان من تتحدث لهن وتصدر اليهم الاوامر هن من اهل سيراكيوز ، واحب ان تعلم اننا من اصل كورنثى ـ ونحن كما تعلم نتشبه بأبناء ملك كورنثه فنتكلم اللغة البليبونيزية واظن انه يحق للدوريين ان يتحدثوا باللهجة الدورية ! »

وكان فى التقاء هذه الأجناس والشعوب بالطبع فى هذه البوتقة إمتزاج كبير للثقافات والأفكار الدينية . وقد انتشرت من الاسكندرية عبادة إيزيس وسيرابيس فى كل أرجاء العالم اليونانى الرومانى وفى الاسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتوراة وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت الى القبطية والسوريانية والأرمنية واللغات الأخرى وكذلك الصورة اللاتينية القديمة ،وفى الاسكندرية استطاع فيلون (Philo) أن يكون مذهبه فى علم المنطق وهو أمر هام للديانة المسيحية وعلم اللاهوت . وكانت الاسكندرية أحد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفة حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب الحرب للنزاع الأخير بين الوثنية والمسيحية ،ولا عجب فى ذلك فانه فى شوارع الاسكندرية كان يتشاحن عبـــاد سيرابيس وعشتاروت والإله زيوس والإله جوبيتر وآلهة أخرى من اسيوية وافريقية .

ومعرفة تاريخ تلك المدينة التى كانت ميدانا لكثير من الأحداث الهامة أمر له أهميته وقدره ففى القرن الثالث قبل الميلاد ، إذ كانت قوة أسرة البطالمة على أشدها ، شاهدت الاسكندرية كثيراً من مظاهر النشاط السياسى والأحداث الهامة فكانت الاحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب أبرز هذه المظاهر فى ذلك العصر ومن بين الوثائق البردية ما يكشف عن خطاب بعث به وزير المالية المصرية فى عهد الملك بطليموس فيلادلفوس الى وكيله زينون فى فيلادلفيا بالفيوم ينبئه فيه بقرب وصول رسل معتمدين من أرجوس فى بلاد اليونان وسفراء من قبل ملك البسفور كيما يشاهدوا مناظر مصر وآثارها ويطلب الى زينون أن يسارع باعداد كل وسائل الراحة لهم وأن يعنى باطلاعهم على جميع نواحى التقدم فى حياة الريف المصرى . وهناك بعثة سياسية ثبت انها أتت من روما فى عهد هذا الملك إبان الحرب البونيه الاولى بين روما وقرطاجه تطلب العون منه ضد قرطاجه وأخرى أتت من الهند من قبل الامبراطور أسوكا (Asoka) البوذى الذى بعث برسله إلى بطليموس الثانى ليقدموا اليه النصح ويبشروه بأن ساعة الخلاص من ربقة الدنيا قد حانت فهل استجاب لنصحهم؟ وهل وجد هؤلاء الرسل فى قلب هذا الملك المفتون بالنساء وايثار المسرات وحب الترف والعظمة سامعاً أو مجيباً ؟

الاسكندرية فى الفترة الأخيرة من حكم البطالمة

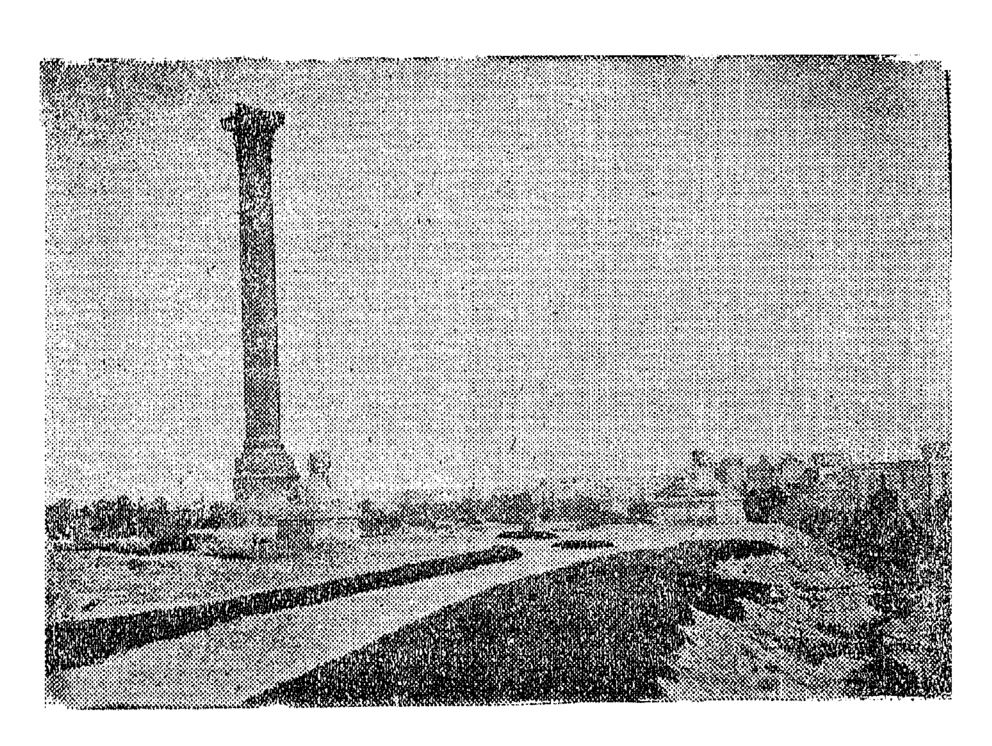
ولما اعتلى عرش مصر بطليوس الرابع (فيلوباتور أو المحب لأبيه) الذى انهمك فى الملاذ والمجون والفحشاء فى الاسكندرية بدأ الحال يتغير فوقع أولا ذلك المنظر المحزن الذى صوره بلوتارك فى تاريخه وذلك أن الملك كايومينيس (Cleomenes) ملك اسبرطه وهو أسير منفى بالاسكندرية ضاق ذرعا بمنفاه فهرب من أسره المذهب تصحبه فئة قليلة من اتباعه وتوسل إلى أحرار المدينة لكى يساعدوه على استرداد حريته ولكن رجاءه لم يجد منهم أذنا مصغية فآثر الموت بطعنة من سيفه فخر صريعا .

وبعد موت فيلوباتور حدثت اضطرابات فى الاسكندرية عندما ظهرت أمام الشعب حظية الملك الماكرة وأخوها بعد قتلها الملكة المحبوبة — يحملان رفات الملك والملكة ويتكلفان ذرف الدمع الهتون، فثار عليهما سفلة الناس وعامتهم ولكن ثورتهم لم تنجح ثم ثار المقدونيون بالاسكندرية وعندئذ مزق الجرمان شر ممزق ، وتاريخ القرن الثانى قبل الميلاد هو فى الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلى بين أفراد الأسرة المالكة وقد فصله باسهاب المؤرخ بوليبيوس، وفى الحروب الأهلية التى كانت تقع نتيجة لهذا الشقاق كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها ،والسكندريون — ولاريب — قد ألفوا مظاهر هذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر وفى عهد بطليوس الثامن الذى اشتهر رسميا باسم يورجيتيس الثانى (Euergetes II) والذى سماه المعجبون به من رعيته فسكون (Physkon) أى السمين وصل الملك إلى العرش مخضبا بالدماء فساءت الأحوال وانهمك الملك فى الملذات والشهوات وفى الأطعمة حتى اصبح بدينا لدرجة التشويه عاجزا عن التنقل والحركة فكان يخفى هذا العيب بارتداء ثوب كان يصل إلى كعبيه ويغطى زراعيه ولم يكن يغادر القصر مطلقا ماشيا على قدميه ومع ذلك فقد كان هذا الملك من أكثر الناس ثقافة وعلما فكان متضلعا فى فقه اللغة وله مؤلفات فى النحو والتاريخ الطبيعى .

ولما نشبت الاضطرابات فى عهده قتل الملك فيها عددا كبيرا من الوطنيين ونشأ عن ذلك تغيير كبير فى أخلاق الشعب . وقد وصف الاسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذى زار مصر فى هذا العصر فقال عن سكانها فى كتابه الرابع والثلاثين مايلى «كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان — العنصر الوطنى (وهم المصريون) وهو نشيط لبيب متحضر والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلوهم سمة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل أن يحتفظوا بالجند المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وكفايتهم فى هذا العصر المتأخر من تاريخ البطالمة أن يحكموا لا أن يطيعوا) ، ثم ثالثهم العنصر السكندرى وحتى هؤلاء لم يكونوا متحضرين لنفس الأسباب ولو انهم كانوا أفضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم أمشاجا من بلاد مختلفة كانوا يونانى الأصل فلم ينسوا المميزات المشتركة لليونان » ويقول بوليبيوس بأن هذا الفريق من السكان قد تلاشى على يد الملك يورجيتيس الثانى وفى هذا بلا شك مبالغة ظاهرة . وبلغ من فتك يورجيتيس

بسكان الأسكندرية حدا جعل قول الشاعر هومر فى الاوديسيا يصدق عليها « إن الطريق إلى مصر طويل وعر محفوف بالمخاطر »

وما وافى القرن الأول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر مشرفا على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيراً حال البلاد الخاضعة لحماية الرومان ثم ثار الشعب فى وجه ملكه بطلميوس أوليتيس (Auletes) الملقب بالزمار نسبة إلى الزمر وهو العمل المحبب إلى قلبه فطرده إلى المنفى ولكن جابنيوس (Gabinius) حاكم الشام وقائد جند الرومان فيها عام ٥٥ ق.م. أعاده إلى عرشه بعد أن قبل منه مبلغاً طائلا من المال واحتل جند الرومان مدينة الاسكندرية لتأييد عرش الملك وفيما بعد ذلك بقليل أتى يوليوس قيصر إلى مصر سنة ٤٧ ق.م. مقتفياً أثر بمبى المنهزم الفار ولكن القائد المظفر وقع أسير حب كليوباترة إبنة الملك أوليتيس وبهرته فتنتها وذكاؤها الخلاب وتطورت الأحوال كان فيها يوليوس قيصر يقف من أبناء الملك أوليتيس موقف الحكم وتحرجت الأمور حتى حاصره فى القصر الملكى اتباع أخيها وزوجها ومرت بقيصر فترة كان فيها فى أخطر المواقف، وفى أثناء القتال والشغب الذى وقع عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة بأضرار جسيمة وخاصة الأجزاء القريبة من القصر الملكى . .



عمود بمبى (الشهير بعمود السوارى)

الأسكندرية فى العصر الرومانى

توارى يوليوس قيصر عن الانظار فجأة إثر مؤامرة دبرها له فريق من الجمهوريين المشفقين على الجمهورية الرومانية فقتلوه فى منتصف مارس عام ٤٤ ق.م ، فآل الامر من بعده إلى أنطونيوس ، ثم اتفق أنطونيوس مع اكتافيوس على الإنتقام من القتلة ، وبعد أن تم لهما ذلك اقتسما مع ليبيدوس العالم الرومانى فاختص أنطونيوس بالشرق ، وحضر إليه منظا وحاكما بأمره ، ومالبث أن اتصل بكليوباترة مستجوباً أول الامر ثم متيما بها وناصراً على أعدائها وخصومها فى مصر ، ثم مالبث أن تنكر لروما وقلب لها ظهر المجن معولاً على تأليب الشرق ضدها ومتخذاً من كليوباترة حليفاً وزوجاً له .

وقد انتهى عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين أنطونيوس وكليوباترة ، ولم يطل هذا الحكم فاسدل الستار على تلك القصة الرائعة بمأساة هزيمة أنطونيوس وانتصار اكتافيوس ثم انتحار أنطونيوس وكليوباترة من بعده بقليل وبذلك توارى المحبان كلاهما بطريقة روائية . فضم اكتافيوس مصر إلى الدولة الرومانية وسجل ذلك فى وصيته المشهورة بأثر أنقرة (١) (الفصل السابع والعشرين) بقوله المأثور : « لقد ضممت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى » وعكف اكتافيوس أغسطس على إصلاح شئون الاسكندرية فأصدر عفواً عاماً وأقر امتيازات المدينة ، ويقول المؤرخ ديوكاسيوس أنه « أمر السكندريين بألا يعولوا فى تسيير شئونهم السياسية على مجلس الشورى نظراً لشكوكه فى أخلاق السكندريين » ولقد أول البعض هذا الأمر بأنه الغاء لمجلس الشورى الذى كان قائماً بالفعل ، وليس حتما أن يكون الأمر كذلك إذ يحتمل أن يكون المجلس قد عطل قبل حكم أغسطس بزمن طويل ؛ ومهما يكن من شىء فان الحكم الرومانى لم يكن بحال من الأحوال محبباً إلى قلوب السكندريين الذين لم يذعنوا تماماً إلى هذا النظام الجديد الذى فقدت فيه مدينتهم مركزها كعاصمة لدولة مستقلة واستمروا ينظرون إلى روما كمدينة حديثة العهد بالملك ، فكانوا يخافون الحكومة القائمة ويضيقون بها ذرعاً . ولم يمنع وجود حامية رومانية فى معسكر كبير فى شرق المدينة فى نيكوبوليس (Nicopolis) قرب بولكلى ومصطفى باشا من حدوث الاضطرابات المستمرة . ولقد ظهر ذلك الروح العدائى القومى فى بعض من النصوص المكتوبة من ذلك العصر وتشتمل هذه النصوص على تقارير عن قضايا نظرت فى روما وهى تتعلق بموظفين سكندريين وقد صيغت فى أسلوب الأوامر الرسمية ولعلها اشتقت منها فى بعض الأجزاء وقد كتبت بأسلوب مملوء بالدعاية التى استفزت شعور السكندريين ، وللشبه الذى بينها وبين قوائم أسماء الشهداء المسيحيين وتراجمهم سميت « أعمال الشهداء الوثنيين » . ولما كان منشأ هذه الاضطرابات

---

(١) وأثر أنقرة هذا سجل دون فيه اكتافيوس أغسطس أعماله وحروبه وما أداه للرومان من خدمات وقد نقش على حوائط المعابد وكشف عن صورة منه فى معبد بأنقرة .

خلاف يقوم فى الغالب بين اليهود والسكندريين كانت هذه الكتابات ذات طابع عدائى نحوهم ومع ذلك كان العدو الأول للسكندريين هو روما .

العلاقة بين السكندريين واليهود

ولم يكن اليهود الذين منعتهم تقاليدهم الدينية من الاشتراك فى حياة المدينة العادية محبوبين . والعلاقة بين اليهود والسكندريين تمثل صفحة هامة فى تاريخ المدينة وكانت نيران العداء بين الطرفين تتأجج بسبب البغضاء الناجمة عن اختلاف الجنس والعداء للسامية وكان يهود الاسكندرية من أوائل المؤسسين للمدينة وزادت أعدادهم فاختصوا بحى عينه لهم أحد ملوك البطالمة الأولين ولا ندرى من هو على سبيل التحقيق وكان حيهم يمتد على شاطىء البحر الى الشرق من القصر الملكى وقد أشار الكتاب الحديثون الى حى الدلتا هذا على أنه « الجيتو » ولكن استعمال هذا الاصطلاح فى العصور الوسطى — ويتضمن معنى القهر والاصرار على عزل اليهود عن غيرهم — مضلل نظراً إلى أنه لم يكن هناك إكراه فى الاسكندرية على أولئك اليهود بأن يسكنوا حيا بمفردهم وقد زادت أعداد اليهود على توالى الزمن وملئوا حيا آخر وانتشروا فى الأجزاء الاخرى من المدينة حيث أقيمت فى كل حى منها بيعهم وقد أثير جدل شديد حول تمتع اليهود بالحرية المدنية واعتبارهم ضمن هيئة المواطنين الاحرار فى المدينة وقد ذكر المؤرخان اليهوديان، يوسف وفيلون، انهم تمتعوا بهذه الحرية ولسنا ندرى مبلغ الصحة فى ذلك ولا الدوافع التى كان المؤرخ يوسف يرمى من ورائها بذلك وجرى كثيرون من المؤرخين الحديثين وراءهما ونادوا بهذا الرأى ولكن الحقيقة غير ذلك فاليهود لم يتمتعوا بالحرية المدنية لمدينة الاسكندرية كمجموعة بل اقتصر الامر على أفراد منهم كانوا يمنحون ذلك من وقت لآخر، على انهم كانوا يتمتعون ببعض الحقوق التى كان يتمتع بها المواطنون الاحرار وكانوا يعرفون بوجه عام بالسكندريين (Alexandreis) ويتمتعون بسلطات واسعة من الحكم الذاتى كانت تفوق فى بعض النواحى السلطات التى يتمتع بها هيئة المواطنين الأحرار وبخاصة فى العصور المتأخرة عندما سلبت المدينة حقها فى أن يكون لها مجلس شورى ، ويبدو أنه كان بين اليهود طبقتان إحداهما عليا والأخرى دنيا . وكان يصرف أمور هذه الهيئة فى أول الأمر المسنون ثم بعد ذلك كان يتولاها موظف يسمى جينارك (Genarch) أو اثنارك (Ethnarch) وفى العصور الرومانية تألف لهم مجلس يعرف بالجيروسيا (Gerousia) ويبلغ عدد أعضائه واحداً وسبعين. وقد عرف كثير من يهود الاسكندرية بالثراء الكبير وكان بعضهم من أصحاب الملايين ، وأشهرهم شقيق الكاتب المشهور «فيلون» والذى كان «روتشلد» عصره ، وبفضل أمثال هؤلاء الرجال أكتسبت الجالية اليهودية سمعة الثراء بوجه عام ، ولو ان هذا القول لا يصدق عليهم جميعاً، وبعض اليهود كان يقوم بأعمال جباية الضرائب، وكثيرون خدموا فى الجندية وفى الحاميات كما اشتغل غيرهم بالزراعة ، وذكرت الوثائق منهم صمويل واسماعيل ويهوذا . أما يهود الاسكندرية فيغلب عليهم الاشتغال بالتجارة وأعمال الصناعة والحرف فكان منهم صائغون وحدادون

وغير ذلك ، وقد اشتهرت الجالية اليهودية بجدها وغنى بعض أفرادها ، ومثلت دوراً مهماً فى تاريخ الاسكندرية تعدى النواحى الاقتصادية إلى شتى المناحى السياسية والاجتماعية والأدبية فقدساهموا فى الترجمة السبعينية للتوراة ، وكان من بين صفوفهم عدد من المؤلفين والكتاب من أمثال فيلون الذى كانت تصانيفه ذات أهمية فائقة فحاول أن يكسو الأفكار الدينية اليهودية فى ثوب يروق للعقل الاغريقى .

أما العلاقة بين اليهود وبين جيرانهم من الاغريق والمصريين المتأغرقين فانها كانت مشوبة بطابع العداء والغيرة والبغضاء أحيانا ولا يوجد أى دليل يثبت وجود الكراهية للسامية بمعناها الدينى والجنسى فى العصر البطلمى وليس معنى هذا أن تلك الكراهية الجنسية لم يكن لها وجود. وكان موقف اليهود من الحكومة القائمة فى عهد البطالمة لا غبار عليه وكانوا عونا للحكومة بفضل نشاطهم وجدهم إذ أصبحوا عنصراً مهما من الناحيه الاقتصادية أما موقفهم من إخوانهم ومواطنيهم فى الاسكندرية فلم يكن رائده الوفاق والمحبة الخالصة فعقائدهم الدينية جعلتهم فى واد آخر عن حياة المدينة الاغريقية ومع ذلك فانهم كانوا يحظون بعطف البيت المالك ويتمتعون ببعض الامتيازات التى كانت للاحرار

وضاعف فى كراهية السكندريين لهم انه عندما زحف جابينيوس سنة ٥٥ ق.م. على رأس جيش من الرومان على مصر لنصرة بطلميوس أوليتيس المخلوع ورده إلى عرشه المسلوب فتحت له الحامية اليهودية فى الفرما أبوابها وهى مفتاح الدلتا من الشرق وتكررت هذه الخيانة فى موقف آخر عندما حوصر يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. فى القصر الملكى بالاسكندرية ومعه كليوباتره وضيق عليه الثوار من أهل الاسكندرية الخناق وعندئذ هبت قوة يهودية فى هليوبوليس لنصرته يؤازرها اخوانهم وبنو عشيرتهم فى ممفيس فارتكبوا خيانة أخرى بفتح الطريق أمام قوة زاحفة من الشرق يقودها ميثريداتيس (Mithradates) لنصرة قيصر وفك حصاره وأخيرا عندما غلب أنطونيوس على أمره وتوارى هو وكليو باتره عن الابصار سارع اليهود إلى خطب ود اكتافيوس وتقديم الولاء له فاعترف لهم بجميع امتيازاتهم وذلك فى نفس الوقت الذى تنكر فيه للسكندريين ورفض مطالبهم فلم يسمح لهم باعادة مجلس الشورى الذى الحفوا فى طلبه منه ، وفى هذه اللحظة ساءت العلاقات بين اليهود والسكندريين . حقا ان السكندريين كثيرا ماعصوا ملوك البطالمة ولكن ساءهم أن يروا عاصمتهم تصبح بين عشية وضحاها عاصمة محلية بعد أن كانت مقرا لحكم ملوكهم الذين أقاموا بين ظهرانيهم فاستشاطوا غيظا ووقفوا من روما موقف المعارض لحكمهم العامل على تقويض أركانه فى السر دائما والعلانية أحيانا خشية بطش روما وجبروتها .

وهكذا كان اليهود الذين منعتهم تقاليدهم الدينية من الاشتراك فى حياة المدينة العادية مكروهين منبوذين وزاد فى كراهية الناس لهم انهم تخلوا عن الأسرة البطلمية ومالئوا الرومان وصالحوهم على حساب ملوك البطالمة ولم يقنعوا بما حصلوا عليه من مزايا بل عملوا للحصول على امتيازات أخرى جديدة وكانوا شديدى الرغبة فى التمتع بالحرية المدنية الكاملة لمدينة الاسكندرية وبلغ من طمعهم أن طالبوا بأن يسمح لهم بالاشتراك فى الألعاب العامة على الرغم من أن المتدينين منهم كانوا ينظرون

إلى هذه الالعاب الرياضية، التي كان يباشرها اليونان ويظهر فيها المتبارون عراة، بعين الكراهية والمقت؛ وقد أخذ هذا العداء المتبادل يشتد ويقوى في السنين الأولى من القرن الأول الميلادى ؛ وفى حكم الامبراطور جايوس (Gaius) الذى لقب على سبيل التهكم باسم كاليجولا (Caligula) هبت زوبعة الخلاف بين السكندريين واليهود وذلك أن أجريبا (Agrippa) اليهودى حفيد الملك هيرود (Herod) كان متلافا شديد التبذير وكان صديق كاليجولا ونديمه فولاه ملكا على جزء من أملاك أجداده فى فلسطين فذهب اليها تصحبه كتائب من الجند تحليهم أثواب زاهية ارجوانيه اللون مكسوة بالذهب ومن حوله حرس خاص من الجند المتحلين بأحسن الثياب وأفخرها وفى طريقه إلى مقر ملكه مر بالاسكندرية وكان قد ظهر فى زيارته السابقة المدينة بمظهر المفلس الهارب من وجه دائنيه، وكان منظر هذا المفلس، يختال بين حرسه الخاص وسط شوارع المدينة واليهود يحيونه من حوله، يدعو إلى سخرية دهماء الاسكندرية السريعى التأثر فبحثوا عن رجل مشهور بالبله والغفلة وألبسوه ملابس الملك على سبيل الاستهزاء وصحبوه إلى ساحة « الجمنازيوم » وأخذوا يحيونه صائحين مارين ! مارين !! وهى كلمة سورية معناها ملك السخرية والطنز .

كان حفلا رائعا تجلى فيه العبث ولكن لما انتهى ، تذاكر المتهكمون والساخرون أن أجريبا هذا الذى أشبعوه سخرية كان الصديق الحميم للامبراطور وأنه من سوء الاختيار وقصر النظر أن يعرض الانسان بسيد العالم الرومانى ولكن بدرت لهم طريقة رائعة يتخلصون بها من الخطر المحدق بهم — وذلك أن كاليجولا هذا كان قد أله وكان على رعاياه أن يعبدوه ولكى يصلح الدهماء ما بينهم وبينه طلبوا إلى اليهود إطاعة أوامر الامبراطور فرفضوا ذلك ولم يفعل حاكم مصر الرومانى الذى كان الامبراطور ساخطا عليه من قبل — أى شيء لحملهم على عبادته إذ خشى عاقبة التدخل لحرج الموقف وعندئذ طالب العامة بضرورة وضع تماثيل الامبراطور فى البيع، وقصر اليهود الذين كانت أعدادهم قد زادت لدرجة فاحشة وانتشروا فى أرجاء المدينة ؛ ولما قاوم اليهود هذه الرغبة واستماتوا فى ذلك وقعت معركة حامية خربت فى أثنائها بضع بيع وانتهكت حرمة البعض الآخر وسلبت ولما تدنست أيدى العامة باراقة الدماء افلت زمامهم ووقعت كل الاضطهادات والفظائع المألوفة وانتهكت الحرمات وأشبع اليهود حتى النساء ضربا مبرحا حتى مات كثيرون وعذب آخرون باحراقهم بالنار وسلبت أملاكهم وقد استمرت هذه الفظائع بضعة أيام تلاها إيفاد البعثة اليهودية المشهورة إلى الامبراطور وقد وصف فيلون، أحد أعضاء هذه البعثة، أعمالها وصفا رائعا ولكنها لم تجد الحل المرضى فى روما فبقيت البيع مغلقة حتى اعتلى كلوديوس (Claudius) عرش الامبراطورية وكان كذلك صديقا لاجريبا فعجل باصدار قرار يثبت فيه امتيازات اليهود ثم ثار اليهود بدورهم على من ظلموهم ووقعت الفتنة بين اليهود والسكندريين ثانية فاستمات الطرفان وتطلبت من السلطات الرومانية جهودا كبيرة كيما تطفىء نيرانها وقد أشار الامبراطور كلوديوس إلى هذا الأمر فى رسالة له إلى أهل الاسكندرية ردا على وفد سياسى كانوا قد أرسلوه لتحيته وفي رسالته هذه كتب يحث الطرفين على الاخلاد إلى

السكينة والمحافظة على السلم فى المستقبل ويهدد المعتدى فى أى اضطراب جديد بأشد العقاب وانكاه لحذر اليهود أحداث الفتن والاضطرابات للطالبة بامتيازات أخرى مهددا بقوله « وإلا انتقمت منهم بكل الوسائل إذ أنهم يثيرون فتنة عامة فى كل أرجاء العالم » ويظهر أن أهل الاسكندرية كانوا قد طلبوا فى هذه المناسبة من الامبراطور أن يعيد اليهم مجلس الشورى وقد تبين من هذه الرسالة أن الامبراطور أهمل هذه الرغبة باحالتها على مايسمى باللجنة الامبراطورية لبحثها .

لم يزد تتابع هذه الحوادث ولاء السكندريين للامبراطور وانما زاد عداؤهم لليهود أكثر مما كان عليه من قبل فكانت تقع حوادث الاصطدام باستمرار بين العنصرين فى السنين التالية ، وفى عهد نيرون بعد قيام ثورة بلاد يهوذا بقليل وقعت موقعة استيأس فيها الجانبان وكان اليهود فى هذه المرة هم البادئين بالعدوان حتى قتل خمسون الفاً منهم على ما قيل — قبل أن يتمكن الحاكم الرومانى من القضاء على الفتنة ، ولعل من الشائق أن نقتبس قطعة من الأدب القومى لذلك العصر تصف محاكمة وقعت فى روما أمام الامبراطور كلوديوس وهى تبين تماما روح العصبية المشوب بالتحدى الظاهر فى أهل الاسكندرية، وكان ايسيدور (Isidorus) رئيس الندوة الثقافية (Gymnasium) فيها قد رفع قضية على أجربا الثانى فلما سأله الامبراطور كلوديوس قيصر « لقد قتلت كثيرين من أصدقائى ياايسيدور .

ايسيدور : لقد اطعت أوامر الامبراطور السابق ، أذكر لى اسم من شئت أبين لك وجه اتهامه

كلوديوس قيصر : حقا انك يا ايسيدور ابن راقصة .

ايسيدور : لست عبداً ولا إبن راقصة وإنما أنا رئيس الندوة الثقافية الشهيرة بمدينة الاسكندرية أما أنت فانك مولود لغير رشدة (يعنى إبن سفاح) من يهودية مشردة تسمى شالومة

وعند ذلك قال « لامبون » لايسيدور ، حسنا ، ماذا نصنع إذا كنا قد أسلمنا الأمر إلى ملك معتوه » .

فلا غرو إذا علمنا من نص أدبى آخر أن الامبراطور قد أصدر حكمه بقتل كل من لامبون وايسيدور .

وقد سمعنا عن حدوث فتنة أخرى فى عهد الامبراطور تراجان وفى عهده كذلك امتحنت الاسكندرية بضروب من المحن أقسى وأشد حين بدأت ثورة اليهود الكبرى فى برقه ثم امتدت الى مصر وقبرص ولما خلت الاسكندرية من بعض حاميتها بسبب سحب بعض الفرق للحرب مع الفرس قل الشغب بالاسكندرية ثم لما عادت القوات الرومانية من برقة منهزمة أمام قوات اليهود فيها، صبوا جام غضبهم على يهود الاسكندرية ثم أخذت الكراهية الشديدة التى كانت تتأجج فى الصدور منذ قرن بأجمعه تعمل عملها فتخرب جزء كبير من المدينة فى الاضطرابات التى وقعت وتهدم الحى اليهودى والبيعة الكبرى ، وأحرق اليهود معبداً لليونان ودمروا بعض الأبنية الأخرى دماراً شديداً ، وبعد

أن انتهت هذه الثـــورة استمر الشغب والفتن بالاسكندرية بين الجانبين . وكان السكندريون الذين ساءهم بعض أوامر الامبراطور أخذوا يعبرون عن سخطهم بالتهكم على الامبراطورالجديد هادريان وفشا ذلك فى العـامة حتى أصبحوا يترنمون بهذه التهكمات فى الشوارع ، فأدى ذلك إلى القبض على الكثيرين لأن الرومان على مافيهم من صلابة وعناد لم ترقهم السخرية والدعابة التى فشت فى السكندريين. وقد أعيد بناء الجزء الأكبر من المدينة ، وراع اليونانيين وزاد فى حنقهم أن عاد اليهود إلى سكنى أحيائهم القديمة ، وبعد ذلك بسنين قلائل وقع بين المصريين خلاف دينى نشأ عنه فتن واضطرابات ولكن زيارة الامبراطور هادريان فى سنة ١٣٠ ق . م . كان لهـا أثرها الطيب فى تهدئة الأحـوال . وانقضت فترة طويلة من الزمان بعد ذلك أخلد شعب الاسكندرية السريع التأثر إلى السكون والهدوء .

الشعب السكندرى فى نظر بعض الكتاب

ولدينا طائفة من أوصاف الشعب الاسكندرى فى ذلك العصر (عصر تراجان) ومنها نصيحة الفيلسوف الوثنى السفسطائى المسمى ديو كريسوستوم (Dio Chrysostom) ويكنى بذى الفم اللؤلئى أو الذهبى وفيها يصورهم فى كثير من الصدق والاخلاص شعباً لاهياً مرحاً مفتوناً بالموسيقى إلى أبعد حد ؛ ويؤيد ذلك ما جاء على أقلام كتاب آخرين أشاروا إلى ميلهم إلى المرح والطرب . ومما جاء فى تلك النصيحة :

« .. أنه ليس من السهل على أجنبى أن يطيق الضوضاء والصخب الذين يحدثهما هذا الجمع الهائل أو عشرات الالوف من أهل الاسكندرية ما لم يكن قد تزود بأرغن وأغنية ؛ لأن هذا هو الدواء لصخب عامتكم وجموعكم الغفـــيرة . . . وأنا نفسى لو كنت أعرف الموسيقى لما حضرت إليكم إلا ومعى أنشودة ! . . »

وفى مناسبة أخرى يقول :

« .. أنكم تصرفون كل وقتكم فى مرح غير مجد ، ولا تعوزكم الحيلة لإيجاد مجال للهو والسرور والضحك ، وقد تعودتم أن تسمعوا السخرية منكم والتهكم عليكم ، وفيكم كثيرين يستطيعون أن أن يقدموا لكم النكات ، ولكنى أرى بكم حاجة ماسة إلى الجد » .

وقد جاءت بعض هذه الاوصاف للسكندريين فى مناسبة أخرى أذ يقول الكاتب « . . . ولا نجد فيها رئيسا لبيعة اليهود ولا سامريا ولا قسيسا مسيحيا الا وهو يشتغل بالتنجيم والعرافة أوزعيم ثورة ؛ وشعب الاسكندرية محب للشغب إلى أبعد حد .... وهو يعيش فى مدينة غنية ثرية حتى لانجد أحداً قد استولى عليه الكسل فالبعض يشتغلون بصنع الزجاج والآخرون يعملون فى صناعة البردى والبعض ينسجون الكتان وكل إنسان يحترف عملا أو يتخذ له فناً حتى الذين أصيبوا بالرثية (أى داء النقرس) لهم عمل تقوى طاقتهم عليه وحتى المكفوفون والذين أصيبوا بشلل فى أحـــد ذراعيهم يجدون عملا يناسبهم ؛ ومعبودهم الوحيد هو المال فالمسيحيون واليهود يعبدون المال وكلهم فى ذلك سواء »

وقد صور القديس كليمان (Saint. Clement) المجتمع السكندرى تصويرا رائعا تشو به بلا ريب روح الوعظ والارشاد فندد بالاخطاء الجسيمة والرزائل التى كان المسيحيون أنفسهم شركاء فيها وهاجم أسراف النساء وغرورهن ولامهن على تبرجهن وزينتهن . ولا يجب أن يتسرب إلى الذهن ان الاسكندرية كانت منصرفة كلية إلى اللهو والمجون فانه فى نفس هذا الوقت كان القديس كليمان يؤسس مدرسته العظيمة لدارسة الشئون الدينية ومن بين الاسماء التى برزت اسم أوريجن (Origen) وهو أعمق المفكرين المسيحيين وكان لهذه المدرسة تأثير عظيم على تطور الفكر فى الكنيسة وفى أثناء الاضطهادات فى أواخر القرن الثالث لقى كثير من المسيحيين والاساقفة أهوالا وعنتا شديدا ؛ وفى القرن الرابع أخذت الديانة المسيحية تحتل المكان الأول .

وإلى قبيل الفتح الاسلامى كانت الاسكندرية لاتزال مركزا تجاريا هاما ولكن أيامها الباقية كانت معدودات فما لبثت بعد فتح العرب مصر ونقلهم العاصمة إلى الفسطاط أن انحط شأنها على الرغم من احتفاظها ببعض الأهمية كمركز بحرى وأخذت أبنيتها الجميلة تختفى واتخذت محجراً لأخذ الاحجار فتوارث حضارة تلك المدينة التى كان يفخر اهلوها بتسميتها عاصمة العالم بأسره وأصبحنا لانجد من آثارها الباقية الاالطفيف يحكى فى صمت رهيب عظمة تلك المدينة الجميلة وتاريخها المجيد .

زكى على